أجاثا كريستي

قضيّة ستايْلز

دار النجمة للنشر والتوزيع

قضيّة ستايْلز

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

قضيّة ستايْلز

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

ستايلز

انحسر الاهتمام الضخم الذي أثارته في الرأي العام القضية التي عُرفت في حينها باسم قضية ستايلز، ولكن نظراً للشهرة الكبيرة التي أصابت هذه القضية فقد طلب منّي صديقي بوارو وأبطال القضية أنفسهم أن أكتب القصة كاملة، وأرجو أن يؤدي ذلك إلى القضاء نهائياً على الشائعات التي لا تزال تتردد بشأنها.

والآن سأبدأ بذكر الظروف التي أدّت إلى اشتراكي في تلك القضية بإيجاز فأقول: لقد أُصبت بجرح في جبهة القتال في فرنسا، وبعد أن قضيت بضعة شهور مملّة في أحد بيوت النقاهة مُنحت إجازة مرضية لمدة شهر، وكنت أفكر كيف وأين أقضي هذه الإجازة، وإذا بي ألتقي مصادفة بصديقي جون كافنديش. ولم أكن قد قابلته منذ بضع سنوات، والواقع أن صلتي به لم تكن وثيقة، رغم أنني كثيراً ما قضيت الإجازة في قصر أمه في ستايلز وأنا صبي، ذلك لأنه كان أكبر مني بنحو خمسة عشر عاماً، وإن يكن مظهره لا يدل إطلاقاً على

أنه في الخامسة والأربعين من عمره.

وأعاد اللقاء إلى أذهاننا ذكريات الماضي السعيد، وقد انتهى الحديث بيننا بأن دعاني إلى قضاء إجازتي في ستايلز وقال: سوف تُسَرّ أمي بأن تراك بعد كل هذه السنوات.

فسألته: هل هي في صحة جيدة؟

- نعم، ألا تعلم أنها تزوجت مرة أخرى؟

ولم أستطِع إخفاء دهشتي، فقد كانت السيدة كافنديش امرأة جميلة، وكانت في العقد الرابع من عمرها حين تزوجت والد جون، وكان وقتئذ أرملاً وله ولدان، ولكن لا بدّ أنها في السبعين أو تجاوزتها الآن. كنت أعرف عنها أنها امرأة نشيطة قوية الإرادة مستبدّة برأيها تميل إلى الأعمال الخيرية والأنشطة الاجتماعية، كما أنها كريمة إلى أقصى حد وتملك ثروة طائلة.

وكان السيد كافنديش قد ابتاع قصر ستايلز عقب زواجهما، ولكن خضوعه لزوجته كان عظيماً إلى حد أنه أوصى لها بالقصر وبالجانب الأكبر من ثروته، وبذلك ظلم ولديه ظلماً فادحاً، ولكن زوجة الأب كانت سخية جداً مع الولدين، وكان الولدان يحبانها كأمهما. وكان لورنس، أصغر الولدين، شاباً رقيقاً وقد تخرج في كلية الطب، ولكنه تخلى عن مهنته وأقام في القصر وانصرف إلى الأدب والشعر. أما جون، الابن الأكبر، فقد مارس المحاماة بعض الوقت ثم اعتزلها وعاش في ستايلز كسيّد من سادات الريف، وقد

تزوج منذ عامين وجاء بزوجته إلى القصر، وخُيِّل إليّ مِن حديثه أنه يفضّل أن تمنحه زوجة أبيه مبلغاً إضافياً كل شهر لكي يعيش مع زوجته في بيت خاص بهما، ولكن السيدة كافنديش لم تكن المرأة التي تخضع لرغبات الآخرين، فقد كانت تصرف الأمور على هواها وتتوقع من الآخرين الرضوخ لإرادتها، وكانوا يرضخون لأن المال في يدها.

وقد لاحظ جون دهشتي حين سمعت نبأ زواج المرأة التي يدعوها أمه، فابتسم وقال بحدة: وأيّ زوج ذلك الذي جاءت به؟! الواقع أن هذا الزواج جعل الحياة لا تطاق بالنسبة لنا يا هيستنغز، وبالنسبة لإيفيلين كذلك، هل تذكر إيفيلين؟

- لا.

- آه، أظنك لم ترَها. إيفيلين هي مرافقة أمي، وهي ليست شابة وليست جميلة، ولكنها امرأة صريحة ومخلصة.

- كنتَ تريد أن تقول شيئاً عن...

- آه، عن ذلك الرجل الذي تزوجَته أمي. لقد هبط علينا من حيث لا ندري، وقد جاء بصفته ابن عم إيفيلين أو قريبها، ولم يَبدُ على إيفيلين نفسها أنها فخورة بهذه القرابة، وهو لا ينتمي إلى بيئتنا أو مجتمعنا لكنه يرتدي نفس الثياب الجاهزة في جميع الأجواء، كما أن له لحية ضخمة سوداء. ولكن يبدو أنه راق في نظر أمي، وقد اتخذَته سكرتيراً لها، فهي شغوفة بإدارة المئات من الجمعيات والمؤسسات الخيرية. هل تعلم ذلك؟

أومأت برأسي علامة الإيجاب فقال: وبسبب الحرب أصبحت المئات آلافاً، ولا شك أن الرجل كان خير عون لها، ولكنك تستطيع أن تتصور مدى دهشتنا وذهولنا حين أعلنَت منذ ثلاثة شهور أنها ستقترن به، فهو أصغر منها بعشرين عاماً على الأقل، ومن الواضح جداً أنه اقترن بها طمعاً في ثروتها، ولكن ماذا كان في استطاعتنا أن نفعل؟ فهي سيدة نفسها ولا سلطان لنا عليها، وهكذا كان لها ما أرادت.

- لا بد أن ذلك كان صدمة لكم جميعاً.

- بل كان صدمة مزعجة إلى أقصى حد.

* * *

بعد ثلاثة أيام من هذا الحديث سافرت بالقطار إلى ستايلز، فوجدت جون بانتظاري في المحطة الصغيرة القائمة وسط الحقول الخضراء حيث رافقني في سيارته إلى قرية ستايلز التي تبعد عن المحطة نحو ثلاثة كيلومترات، أما قصر ستايلز فكان يقع على مسافة كيلومتر من الجانب الآخر للقرية، وكان من المستحيل على من ينظر إلى الوديان الخضراء الهادئة المترامية في تلك المنطقة المسطحة في ذلك اليوم الحارّ من شهر تموز (يوليو) أن يتصور أن هناك حرباً ضروساً تضطرم في الجانب الآخر من بحر المانش، وقد شعرت فجأة كأنني أهيم في عالم آخر.

قال جون حين اقترب من القصر: أخشى أن تجد الحياة هنا أهدأ مما توقعتَ يا هيستنغز.

- ذلك ما أرجوه يا صديقي العزيز.

- الإقامة هنا ممتعة لمن ينشد حياة الخمول. أنا شخصياً أتدرب مع الجنود المتطوّعين مرتين في الأسبوع، كما أعاون في أعمال المزرعة، أما زوجتي فتشرع في حلب الأبقار في الخامسة من صباح كل يوم وتستمر في ذلك حتى موعد تناول الغداء. الحياة رائعة في مجموعها لولا ذلك المدعو ألفريد أنجلثروب.

ثم أوقف السيارة فجأة ونظر إلى ساعته وهو يقول: لا أدري إذا كنا نستطيع اصطحاب سنثيا معنا أم لا، ولكن لا، فقد فات موعد انصرافها من المستشفى.

- سنثيا؟ هل هي زوجتك؟

- لا؛ إنها ربيبة أمي، فقد كانت أمها صديقة لأمي، وقد تزوجَت محامياً وغداً بدّد كل ثروتها، وبقيت بعد موت أمها يتيمة بغير مال أو عائل فكفلَتها أمي وجاءت بها للإقامة معنا منذ عامين، وهي تعمل في أحد المستشفيات في تادمنستر على بعد سبعة أميال من هنا.

ثم وقفت السيارة بنا أخيراً أمام القصر، فاعتدلت سيدة بدينة كانت منحنية في حقل الزهور ونظرت نحونا فهتف جون قائلاً: مرحباً إيفيلين، ها هو ذا بطلنا الجريح.

ثم التفت إليّ وقال: هذه هي الآنسة إيفيلين يا هيستنغز.

شدّت إيفيلين على يدي بحرارة وقوة. كانت في نحو

الأربعين من عمرها ذات وجه لوّحته الشمس وعينين زرقاوين وصوت خشن كأصوات الرجال، وقد لاحظت أنها تتكلم بإيجاز كأسلوب البرقيات. قالت: الأعشاب هنا تنمو بسرعة مذهلة، إذا قطعتَ عوداً نبت عودان.

فسألها جون: أين سنتناول الشاي اليوم يا إيفيلين؟ في البيت أم في الحديقة؟

- في الحديقة؛ فالجو صحو وحرام علينا أن نقضي الوقت بين الجدران.

- إذن هلمّي معنا، لقد عملتِ اليوم في الحديقة بما فيه الكفاية.

فأجابت وهي تخلع قفازيها: أعتقد ذلك.

ثم تقدمَتنا فدارت بنا حول البيت إلى حيث كانت مائدة الشاي في ظل شجرة جمّيز ضخمة، فنهضت سيدة شابة كانت تجلس أمام المائدة وتقدمت بضع خطوات لاستقبالنا فقال جون: هذه ماري، زوجتي.

ولن أنسى ما حييت هذا اللقاء الأول مع ماري كافنديش، فقد رأيت أمامي شابة طويلة القامة نحيلة الجسم لها عينان رائعتان تختلفان عن عينَي أية امرأة وقع عليها بصري، عينان تنبئان عن روح جامحة وحيوية تفيض قد حُبسا في جسد أليف. حيّتني بكلمات قليلة لطيفة وبصوت خافت واضح النبرات، ثم جلست على أحد المقاعد.

ثم قدّمت لي ماري كافنديش قدحاً من الشاي، ودعمت ملاحظتها القليلة الهادئة انطباعاتي عنها من أنها امرأة فاتنة حقاً. ولم يكن جون محدّثاً لبقاً، فانطلقت أروي بعض الأحداث المضحكة التي عشتها في بيت النقاهة، وراحت ماري كافنديش تصغي إليّ بانتباه واهتمام أطلقا لساني من عقاله. وبعد قليل سمعت صوتاً مألوفاً صادراً من شرفة قريبة يقول: عليك إذن أن تكتب إلى الأميرة يا ألفريد، أما أنا فسأكتب إلى الليدي تادمنستر، أو لعلك ترى من الأفضل أن ننتظر رد الأميرة أولاً، فإذا رفضَت كتبنا إلى الليدي كي تفتح السوق الخيرية في اليوم الأول على أن تفتتحها السيدة كروسبي في اليوم الثاني، ثم هناك الحفلة المدرسية التي ستقام تحت رعاية الدوقة...

وهنا سمعت صوت رجل يتمتم بكلام لم أتبينه، فأجابت السيدة: حسناً، ليكن ذلك بعد تناول الشاي يا عزيزي ألفريد.

وفُتح باب الشرفة على مصراعَيه وخرجت منه سيدة عجوز ذات شعر أبيض ووجه تنمّ قسماته عن قوة الإرادة ومضاء العزيمة، فسارت على العشب وتبعها رجل راح يمشي وراءها باحترام، ثم وقع بصرها عليّ فهتفت قائلة: ما أسعدني برؤيتك بعد كل هذه السنوات يا سيد هيستنغز.

ثم قدمَتني إلى الرجل الذي يسير خلفها بقولها: هذا هو السيد هيستنغز يا عزيزي ألفريد.

وقدمته إليّ قائلة: وهذا زوجي.

فنظرت بشيء من الذهول إلى عزيزها ألفريد. كانت لحيته أطول وأحلك سواداً من أية لحية رأيتها قبلاً، وكان يضع على عينيه نظارات ذات إطار ذهبي، وقد خُيل إليّ حين رأيته أنه إنسان منقطع الصلة بواقع الحياة وأن مكانه الطبيعي هو خشبة المسرح! وشدّ على يدي كأنها قطعة من خشب وقال بصوت عميق: يسعدني لقاؤك يا سيد هيستنغز.

ثم تحوّل إلى زوجته وقال: أظن أن هذه الوسادة قد أدركتها الرطوبة يا عزيزتي إميلي.

فنظرَت إليه بولَه في حين راح هو يستبدل الوسادة بأخرى بعناية شديدة وقد خيّم على الجميع وجوم مشوب بالكراهية، ولم تحاول إيفيلين إخفاء مشاعرها، ولم تلاحظ السيدة أنجلثروب شيئاً فراحت تتكلم بطلاقتها المعهودة وتركز حديثها حول السوق الخيرية والاجتماعات التي تنظمها، في حين أخذ زوجها يتتبع حديثها باهتمام ويعاونها على تذكر الأيام والتواريخ.

وقد شعرت منذ اللحظة الأولى ببغض شديد لهذا الرجل، وأنا أعلم أن انطباعي الأول قلما يخطئ. ثم تحولَت السيدة أنجلثروب أخيراً إلى إيفيلين هوارد وراحت تصدر إليها بعض التعليمات بشأن الرسائل، والتفت ألفريد أنجلثروب إليّ وقال: هل الجندية مهنتك يا سيد هيستنغز؟

- لا، فقد كنت قبل الحرب أعمل في شركة لويد للتأمينات البحرية.

- وهل ستعود إلى وظيفتك بعد انتهاء الحرب؟

- قد أعود إليها، وقد أبدأ عملاً جديداً.

وهنا انحنت ماري كافنديش إلى الأمام وسألت: ما المهنة التي تتفق مع ميولك يا سيد هيستنغز؟ هل لك هواية خاصة؟

- ستضحكين إذا عرفتِ هوايتي.

فابتسمَت وقالت: حقاً؟

- الواقع أنني أشعر في قرارة نفسي برغبة في أن أعمل شرطياً سرّياً.

- مثل شيرلوك هولمز؟

- نعم، كشيرلوك هولمز، فهذه المهنة تستهويني. وقد قابلت في بلجيكا شرطياً سرّياً مشهوراً ألهب حماستي لهذه المهنة، ودائماً كان يقول إن براعة الشرطي السري تتجلى في أسلوبه في العمل، وقد اقتنعت بأسلوبه.

فقالت إيفيلين: أنا شخصياً أحب القصص البوليسية الجيدة، فهناك روايات بوليسية سخيفة تكشف عن المجرم في الفصل الأخير، وهو ما لا يحدث في الجرائم الواقعية حيث يمكنك معرفة القاتل من أول وهلة.

فقلت: ولكن توجد جرائم واقعية كثيرة لم يُكتشَف مرتكبوها.

– قد لا يكتشفهم رجال الشرطة، ولكن أفراد الأسرة التي وقعت فيها الجريمة غالباً ما يعرفون المجرم الحقيقي، وإن كانوا لا يملكون الأدلة.

– هل معنى ذلك أنه إذا وقعت جريمة قتل في بيتكِ لأمكنك معرفة القاتل على الفور.

– طبعاً. ربما أعجز عن تقديم الأدلة ولكنني أشعر به وأعرفه بإحساسي.

– وإذا كان القاتل امرأة فماذا تصنعين؟

فقالت ماري كافنديش بصوت واضح النبرات: القتل من جرائم العنف التي لا يرتكبها إلا الرجال.

– لا أظن أنك ستعرفين القاتل بإحساسك إذا كانت الجريمة قد ارتُكبت بالسم. لقد قال الدكتور باورشتاين أمس إن غالبية الأطباء لا يعرفون السموم غير المألوفة، ولذلك فهو يعتقد أن كثيراً من جرائم السم قد مرّت دون أن يفطن إليها أحد.

فصاحت السيدة أنجلثروب: ما هذا الحديث المزعج يا ماري؟! جسدي يقشعر لسماعه. آه، ها هي سنثيا.

نظرت فرأيت فتاة في مقتبل العمر ترتدي معطفاً أبيض تقبل نحونا مسرعة، واستطردَت السيدة أنجلثروب قائلة: لماذا تأخرتِ اليوم يا سنثيا؟ دعيني أقدم إليك السيد هيستنغز.

كانت سنثيا في عنفوان شبابها ممتلئة نشاطاً وحيوية،

وخلعت قبعتها فأعجبني شعرها الأحمر الطويل كما أعجبتني يدها الصغيرة البيضاء حين مدّتها لتناول قدح الشاي، ثم جلست على العشب بجوار جون، وقدمتُ إليها صحن الشطائر فابتسمت لي وقالت: لماذا لا تجلس على العشب، فجلسته مريحة؟

فأطعتها على الفور وسألتها: هل تعملين في مستشفى تادمنستر يا آنسة سنثيا؟

- نعم، لسوء الحظ.

- لماذا؟ هل يضايقونك كثيراً هناك؟

فصاحت بكبرياء: من ذا الذي يجرؤ على مضايقتي؟

- لي ابنة عم تعمل ممرضة، وهي ترتجف رعباً من كبيرة الممرضات.

- ولكنني لست ممرضة ولله الحمد، فأنا أعمل في الصيدلية.

فقلت لها وأنا أبتسم: وكم شخصاً قتلتِ بالسم؟

فابتسمت بدورها وقالت: مئة تقريباً.

وهنا قالت السيدة أنجلثروب: هل تستطيعين أن تكتبي لي بضع رسائل بعد تناول الشاي يا سنثيا؟

- طبعاً يا عمتي.

ثم قامت واقفة على الفور. ونبهتني طاعتها إلى مركزها

في البيت كفتاة يتيمة تعيش على كرم أصحابه وإلى أن السيدة أنجلثروب -رغم لطفها وعطفها- لا تسمح للفتاة بأن تنسى ذلك.

ثم تحولَت السيدة أنجلثروب إلي وقالت: سيرشدك جون إلى غرفتك. نحن نتناول العشاء في السابعة والنصف، فقد كففنا عن تناول العشاء في وقت متأخر اقتصاداً للطاقة، والليدي تادمنستر تفعل مثل ذلك، وهي تشجعني على أننا يجب أن نضرب المثل في الاقتصاد، فنحن في وقت حرب ويجب أن نقتصد في كل شيء، حتى الأوراق المهمَلة أصبحنا نحرص عليها ونضعها في زكائب ونبعث بها إلى الجهات التي يمكنها الإفادة منها.

فعبّرت لها عن تقديري، ثم رافقني جون إلى داخل البيت فارتقى بي درَجاً ينتهي بشعبتين تؤدي إحداهما إلى الجناح الأيمن وتؤدّي الأخرى إلى الجناح الأيسر، وكانت غرفتي تقع في الجناح الأيسر وتطل على حديقة القصر. ثم تركني جون، وبعد بضع دقائق رأيته من نافذتي وهو يسير في الحديقة متأبّطاً ساعد سنثيا، ثم سمعت السيدة أنجلثروب وهي تدعو سنثيا بصوت ينمّ عن الضيق فأسرعت الفتاة تعدو نحو المنزل، وفي نفس اللحظة خرج رجل من خلف إحدى الأشجار وسار في نفس الاتجاه.

كان الرجل في نحو الأربعين أسمر البشرة حليق الوجه تبدو عليه دلائل الانفعال، وعندما مرّ أمامي ونظر إلى نافذتي عرفته على الفور رغم ما طرأ عليه من تغيّر خلال الأعوام

الخمسة عشر التي لم أرَه فيها. كان ذلك الرجل هو لورنس كافنديش، الأخ الأصغر لجون، وقد عجبت لدلائل الانفعال التي كانت تبدو على وجهه، فتساءلت بيني وبين نفسي عن سببها، ولكنني لم أفكر في الأمر طويلاً وعدت إلى حوائجي أرتّبها.

* * *

كان اليوم التالي مشرقاً جميلاً، ولم أرَ ماري كافنديش إلا وقت الغداء، ولكنها تطوعَت بعد ذلك لمرافقتي في جولة في الحقول والغابات. وكانت جولة لطيفة عدنا منها في الساعة الخامسة، وبينما كنا نجتاز البهو أومأ جون إلى قاعة الاستقبال فتبعناه إليها، وكان تجهّم وجهه يدلّ على أن شيئاً مزعجاً قد حدث، وما إن دخلنا للقاعة حتى أغلق بابها وقال يحدّث زوجته: أصغي إليّ يا ماري. نحن في مأزق، فقد تشاجرَت إيفيلين مع ألفريد أنجلثروب وقررت الرحيل.

- إيفيلين؟!

- نعم، وقد ذهبَت لمقابلة أمي.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب ودخلت إيفيلين بادية الانفعال وبيدها حقيبة صغيرة وقالت بغيظ: مهما يكن من أمر فقد قلت له رأيي فيه، وكذلك قلت لإميلي كلاماً لا أعتقد أنها ستنساه أو ستغفره بسهولة؛ قلت لها: "أنت امرأة عجوز يا إميلي وليس هناك من هو أشد غفلة من مغفَّلة عجوز، وهذا الرجل أصغر منك بعشرين سنة على الأقل، فلا يجب أن

تتغافلي عن الأسباب التي دعته إلى الاقتران بك، لقد اقترن بك طمعاً في ثروتك، فلا تدعيه يغترف من مالك أكثر مما ينبغي، كما أن للمزارع المدعو ريكس زوجة شابة جميلة، فاسألي زوجك كم من الوقت يقضي عند ريكس"، وقد غضبت إميلي غضباً شديداً، وهذا أمر طبيعي، ولكنني قلت لها: "أنا أحذرك سواء أردت أم لم تريدي، هذا الرجل يفضّل أن يقتلك في فراشك على أن ينظر إليك، فهو رجل سوء. قولي عنّي ما شئت ولكن تذكري أنني حذرتك".

- وماذا قالت؟

راحت إيفيلين تقلّد السيدة أنجلثروب وتقول: "ألفريد العزيز، ألفريد الحبيب، هذه وشايات وأكاذيب. كيف تجرئين أيتها المرأة الشريرة على اتهام زوجي العزيز؟" ولذلك رأيت من الأفضل أن أرحل، وها أنا ذا راحلة.

- الآن؟

- نعم، الآن.

فران علينا صمت عميق وجعلنا ننظر إليها في حيرة ودهشة، ثم حاول جون كافنديش أن يثنيها عن عزمها، ولما فشل غادر الغرفة ليستفسر عن مواعيد القطار، ثم تبعته زوجته، وما إن أغلقا الباب خلفهما حتى تغيرت ملامح إيفيلين هوارد وانحنت إلى الأمام وقالت: سيد هيستنغز، هل أستطيع أن أثق بك؟

وضعَت يدها على ذراعي واستطردَت قائلة بهمس:

إميلي امرأة مسكينة فحاول حمايتها يا سيد هيستنغز، إنها هنا وسط مجموعة من الحيتان ليس بينهم واحد لا يعاني من ضائقة مالية، وجميعهم يسعون وراء ثروتها. لقد كنت أقوم بحمايتها، ولكنني سأذهب وأخلي لهم الجو وسوف يفرضون أنفسهم عليها.

- اطمئنّي يا آنسة هوارد، سأبذل قصارى جهدي. ولكنني واثق من أنك لم تقولي ما قلت إلا عن إحساس بالضيق والانفعال.

- أنا أكبر منك سناً وأعرف عن الناس والحياة أكثر مما تعرف أيها الشاب، وكل ما أطلبه منك هو أن تفتح عينيك وسوف ترى أنني كنت على حق.

في تلك اللحظة سمعت صوت محرك السيارة، فنهضَت الآنسة هوارد واقفة وحملَت حقيبتها وسارت إلى الباب، وهناك تحولت إليّ وقالت: عليك بصفة خاصة أن تراقب ذلك الشيطان، زوجها.

ثم تحركت بها السيارة وسط عاصفة من عبارات الأسف والوداع، ولم تشترك السيدة أنجلثروب وزوجها في هذا المشهد. وما إن ابتعدت السيارة حتى انفلتت ماري كافنديش من بين المودّعين وهرولت لاستقبال رجل طويل القامة ذي لحية قصيرة كان في طريقه إلى البيت، وقد لاحظت أن وجهها تضرج احمراراً وهي تبسط يدها إليه، فشعرت بكراهية غريزية للرجل وسألت: من هذا؟

- هذا هو الدكتور باورشتاين

- ومَن هو الدكتور باورشتاين؟

- أخصائي من لندن. يقال إنه من أعظم الخبراء في السموم، وهو يقيم في القرية للنقاهة من انهيار عصبي.

فقالت سنثيا: هو من أعز أصدقاء ماري.

فقطب جون حاجبيه وقال ليغير موضوع الحديث: دعنا نتريض قليلاً يا هيستنغز، فما أشد أسفي لما حدث. لقد كانت إيفيلين صديقة مخلصة رغم خشونتها وألفاظها الجارحة.

سرنا في الطريق إلى القرية وسط الغابة التي تقع على حدود ممتلكات إميلي أنجلثروب، ثم عدنا أدراجنا، وما إن اقتربنا من باب القصر حتى مرت بنا امرأة شابة على جانب كبير من الجمال فأومأت لنا وابتسمَت، فقلت لجون: ما أجملها!

- هذه هي السيدة ريكس.

- المرأة التي قالت إيفيلين هوارد إنها...؟

فقاطعني جون قائلاً بحدة لا مبرر لها: نعم.

وقارنت في ذهني بين السيدة العجوز ذات الشعر الأبيض التي تقيم في القصر وهذه الفاتنة اللعوب التي ابتسمت لنا في التو واللحظة، ثم غمرتني موجة من الحزن والتشاؤم، ولكنني سرعان ما تناسيت الموضوع وقلت أحدث جون: حقاً إن ستايلز مزرعة رائعة!

- أجل، وسوف تكون لي يوماً ما، بل إنها كان يجب أن تكون لي الآن لو أن أبي ترك وصية معقولة.

ثم أردف بعد قليل: لو أنه فعل لما وجدت نفسي في الضائقة التي أعانيها الآن.

- هل أنت في ضائقة مالية؟

- لا أكتمك، هذه هي الحقيقة يا هيستنغز.

- ألا يستطيع أخوك أن يساعدك؟

- لورنس؟ لقد أضاع كل ما ورثه عن أبيه في طبع أشعاره التي لا يقرؤها أحد، ولكنني لا أنكر أن أمي كانت تعاملنا بسخاء إلى أن تزوجت.

وفي تلك اللحظة أحسست للمرة الأولى بأن رحيل إيفيلين هوارد قد أفرغ الجو من شيء لا أستطيع وصفه أو تحديده، فقد كان وجودها يشيع نوعاً من الاستقرار والأمان، أما الآن فإن الجو يبدو مشحوناً بالريب والشكوك، مما جعلني أتوقع شراً مستطيراً.

* * *

الفصل الثاني

يومان

كنت قد وصلت إلى ستايلز في اليوم الخامس من شهر تموز (يوليو)، وسأروي الآن أحداث يومَي السادس عشر والسابع عشر من ذلك الشهر تماماً كما أثبتتها التحقيقات الطويلة والاستجوابات المضنية في أثناء نظر القضية.

كنت قد تسلمت رسالة من إيفيلين هوارد بعد رحيلها بيومين قالت فيها إنها تعمل ممرضة بمستشفى بمدينة ميدلنجهام التي تبعد ١٥ ميلاً عن ستايلز وإنها ترجوني أن أخبرها عما إذا كانت السيدة أنجلثروب قد أبدت أية رغبة في مصالحتها أم لا.

ولم يكن هناك ما يثير استغرابي في تلك الأيام سوى سلوك ماري كافنديش العجيب وإيثارها غير المفهوم لصحبة الدكتور باورشتاين. ولا أعرف ماذا كان يعجبها في ذلك الرجل، ولكنها كانت تدعوه إلى البيت باستمرار وتخرج معه للنزهة في الغابة أو في الحقول.

وكان يوم ١٦ تموز يوم إثنين، وكانت السوق الخيرية قد افتتحت يوم السبت وتقرر إقامة حفل في مساء الإثنين يكون امتداداً للسوق وتلقي فيه السيدة أنجلثروب شعراً عن الحرب، فقضينا ساعات الصباح في إعداد قاعة البلدية حيث سيقام الحفل وتناولنا الغداء في وقت متأخر والتمسنا بعض الراحة في الحديقة، ولاحظت أن جون ليس في حالته العادية فقد كان يبدو قلقاً مضطرباً. وبعد الشاي ذهبَت السيدة أنجلثروب إلى حجرة نومها لتستريح وتستجمع قواها للسهرة، أما أنا فقد دعوت ماري كافنديش لمباراة في التنس.

وفي الساعة السابعة إلا الربع طلبَت منا السيدة أنجلثروب الاستعداد لتناول العشاء، وما إن فرغنا من الطعام حتى وجدنا السيارة في انتظارنا. وقد حقق الحفل نجاحاً عظيماً وقوبلت أشعار السيدة أنجلثروب بعاصفة من التصفيق، واشتركت سنثيا في بعض التمثيليات الصغيرة، ولم تعد معنا إلى البيت لأن إحدى صديقاتها دعتها إلى المبيت عندها.

وفي الصباح كانت السيدة أنجلثروب لا تزال تشعر ببعض التعب فتناولت طعام الإفطار في فراشها، ولكنها نشطت عند الظهر، ثم دعتني مع لورنس إلى مأدبة غداء في بيت السيدة رولستون، شقيقة الليدي تادمنستر. وكانت ماري قد اعتذرت لأنها على موعد مع الدكتور باورشتاين.

وبعد المأدبة اقترح لورنس أن نعود عن طريق تادمنستر لكي نزور سنثيا في صيدليتها، فقالت السيدة أنجلثروب إنها فكرة طيبة ولكنها لا تستطيع مرافقتنا لأن لديها رسائل يجب

أن تكتبها، واقترحت أن تتركنا في تادمنستر وتمضي في طريقها إلى ستايلز على أن نعود نحن بسنثيا في إحدى المركبات.

وقد رحبَت بنا سنثيا وقدمتنا إلى زميلتها التي تدعوها باسم نيبز، وقلت لها وأنا أجيل الطرف بين صفوف القوارير والزجاجات في الغرفة الصغيرة: هل تعرفين حقاً ما في كل زجاجة هنا؟

فأجابت متذمرة: قل شيئاً جديداً، فكل زائر يلقي نفس السؤال، حتى لقد فكرنا في منح جائزة لأول شخص لا يسألنا: هل تعرفون حقاً ما في كل زجاجة هنا؟ أما السؤال الثاني المألوف فهو: كم عدد الأشخاص الذين سمّمتوهم؟

فضحكت، وقالت سنثيا: لو علم الناس كم من الأشخاص يمكن أن يتسمموا نتيجة خطأ في مزج العقاقير لما ضحكوا. ولكن دعونا نتناول الشاي فلدينا هنا خزائن سرية حافلة بالشاي والحلوى. لا يا لورنس، هذه خزانة السموم أما الشاي والحلوى ففي الكبيرة.

تناولنا الشاي في جو مرح وساعدنا سنثيا في غسل الملاعق والأقداح، وما كدنا نفرغ من ذلك حتى طُرِق الباب فقطبت سنثيا وزميلتها حواجبها وهتفت الأولى وهي تصطنع الجد: ادخل.

ففُتح الباب ودخلت ممرضة شابة وفي يدها زجاجة قدمتها إلى نيبز، فأحالتها هذه إلى سنثيا التي تناولت الزجاجة وقرأت بطاقتها وقالت: هذه الزجاجة كان يجب إرسالها إلينا

صباح اليوم.

- كبيرة الممرضات تعبّر عن أسفها لأنها غفلت عن إرسالها.

- يجب على كبيرة الممرضات أن تقرأ التعليمات المعلَنة على باب الصيدلية.

فنظرت إلى الفتاة وأدركت من ملامحها أنها لن تجرؤ على نقل هذا الكلام إلى كبيرة الممرضات، ثم قالت سنثيا: ولكن هذا الدواء لن يتم إعداده قبل صباح الغد.

- ألا يمكن إعداده الليلة؟

- نحن مُثقَلون بالعمل، ولكننا سنحاول إذا وجدنا متسعاً من الوقت.

انصرفت الممرضة الشابة، ومدت سنثيا يدها إلى وعاء زجاجي فوق أحد الرفوف فسكبت بعض محتوياته في الزجاجة ثم وضعت الزجاجة على مائدة خارج الغرفة، فأدركت غرضها من هذه المناورة وقلت ضاحكاً: النظام أولاً، أليس كذلك؟

- طبعاً. والآن تعالوا إلى الشرفة فمنها تستطيعون رؤية عنابر المرضى.

وخرجَت مع زميلتها إلى الشرفة فتبعتهما، وراحتا تشيران إلى أجنحة المستشفى، وكان لورنس قد تخلف في الصيدلية فدعته سنثيا للانضمام إلينا، وبعد قليل نظرَت إلى ساعتها وسألت زميلتها: هل هناك ما يجب عمله يا نيبز؟

- لا.

- إذن يحسن بنا أن نغلق الصيدلية وننصرف.

لقد أتاحت لي تلك الرحلة فرصة لمعرفة لورنس على حقيقته، فقد كان على النقيض من أخيه جون من جميع الوجوه؛ فهو خجول ومُنطوٍ على نفسه، ولكنه ذو شخصية مرحة جذابة ولا يسع من يعرفه جيداً إلا أن يحبه. وكنت قد لاحظت أنه يعامل سنثيا بتحفظ وأن سلوك الفتاة أمامه يتسم بالخجل والحياء، ولكنهما في ذلك اليوم كانا شديدَي البهجة والمرح خلافاً للعادة، فكانا يتحدثان ويضحكان كالأطفال.

وتذكرت ونحن نخترق القرية أنني بحاجة إلى بعض طوابع البريد، فأوقفت المركبة أمام مكتب البريد واشتريت حاجتي من الطوابع، وبينما كنت أغادر المكتب اصطدم بي رجل قصير القامة كان يهم بالدخول، فاعتذرت له وأفسحت له الطريق. وفجأة أرسل الرجل صيحة سرور وأحاطني بساعديه وقبّلني بحرارة وهو يهتف: صديقي هيستنغز، من كان يصدق أنني سألقاك هنا؟

- بوارو؟!

ثم التفتّ إلى المركبة وقلت لسنثيا: كم أنا سعيد بهذه المفاجأة يا سنثيا، هذا صديقي العزيز السيد بوارو الذي لم أرَه منذ أعوام.

فقالت سنثيا بمرح: نحن نعرف السيد بوارو، ولكن لم يخطر لي ببال أنه صديقك.

فقال بوارو بلهجة جدية: أجل، أنا أعرف الآنسة سنثيا، والفضل في إقامتي هنا للسيدة أنجلثروب وكرمها.

ورأى في عيني نظرة تساؤل فاستطرد قائلاً: أجل يا صديقي، فقد استضافتني مع سبعة من مواطنيّ المهاجرين من بلجيكا، وسوف نذكر صنيعها بالشكر والعرفان مدى الحياة.

كان بوارو رجلاً قصير القامة عجيب المنظر، فطوله لا يتجاوز المتر ونصف المتر، ولكنه يسير مشدود القامة مرفوع الرأس بطريقة متميزة تكسبه أهمية وهيبة، وكان له رأس في شكل البيضة وشارب متصلب كشوارب العسكريين، أما عنايته بأناقته ونظافة ثيابه فليس لها حدّ، حتى لقد خُيِّل إليّ أن ذرة من التراب على ثوبه يمكن أن تؤلمه أكثر مما يؤلمه جرح من رصاصة. ومع ذلك فإن هذا الرجل القصير الأنيق كان -في وقت ما- أشهرَ شخصية في الشرطة البلجيكية.

وأشار بوارو إلى البيت الصغير الذي يقيم فيه مع زملائه البلجيكيين فوعدته بأن أزوره في أقرب فرصة، وبعد أن رفع قبعته وحنى قامته باحترام تحية لسنثيا انطلقَت بنا المركبة في الطريق إلى ستايلز، ثم قالت سنثيا: إنه رجل ظريف، ولم أتصور قط أنك تعرفه.

- إنه شرطي سري ذائع الصيت.

وأخذت أروي لها بعض مغامراته وانتصاراته في عالم الجريمة. وكنا جميعاً في حالة نفسية طيبة عندما وصلنا إلى القصر، وما إن اجتزنا البهو حتى خرجت السيدة أنجلثروب

من غرفة نومها وهي محتقنة الوجه بادية الانفعال، فسألَتها سنثيا: هل ثمة ما يضايقك أيتها العمة إميلي؟

فأجابتها السيدة أنجلثروب بحدة: لا طبعاً، ماذا يمكن أن يضايقني؟

ولمحَت وصيفتها دوركاس وهي تدخل قاعة الطعام فطلبَت منها أن تأتيها ببعض طوابع البريد، فأجابت الوصيفة: حسناً يا سيدتي.

ثم أضافت بعد تردد قصير: ألا ترين يا سيدتي أنه من الأفضل أن تأوي إلى فراشك؟ أنتِ متعَبة جداً.

- لعلك على حق يا دوركاس، ولكن ثمة رسائل يجب أن أكتبها قبل موعد إرسال البريد. هل أشعلتِ النار في مدفأة غرفتي كما أمرتك؟

- نعم يا سيدتي.

- إذن سأذهب إلى فراشي بعد العشاء.

ثم عادت إلى غرفة نومها، وشيعتها سنثيا ببصرها ثم قالت تحدث لورنس: يا إلهي! ترى ماذا حدث؟

ويبدو أنه لم يسمعها لأنه دار على عقبيه دون أن ينطق بكلمة وغادر البيت. ثم اقترحتُ على سنثيا أن نلعب مباراة تنس سريعة قبل العشاء، فلما وافقت صعدت الدرَج مسرعاً لأحضر مضربي، فالتقيت بماري كافنديش وهي تهبط الدرج وخُيل إليّ أنها تبدو مضطربة ومنزعجة أيضاً، فسألتها

وأنا أتظاهر بقلة اكتراث: هل طابت لك النزهة مع الدكتور باورشتاين؟

فقالت بإيجاز: أنا لم أخرج. أين السيدة أنجلثروب؟

- في غرفة نومها.

فأطبقَت بأصابعها على حاجز الدرَج ورفعت رأسها بحركة فجائية كمن يستجمع قوته وعزيمته لمواجهة هامة، ثم هبطت الدرج بسرعة وسارت في البهو ودخلت غرفة نوم السيدة أنجلثروب وأغلقت الباب وراءها.

أحضرت مضربي ومررت بنافذة غرفة النوم وأنا في طريقي إلى حلبة التنس، وكانت النافذة مفتوحة فسمعت طرفاً من الحوار الذي دار بين ماري كافنديش والسيدة أنجلثروب، وكانت ماري تقول بصوت امرأة يائسة تحاول السيطرة على غضبها: ألا تدعينني أراه.

فأجابتها السيدة أنجلثروب: لا علاقة له بالموضوع الذي تتحدثين عنه يا عزيزتي ماري.

فقالت ماري كافنديش بمرارة: طبعاً، كان يجب أن أعرف أنكِ تتسترين عليه.

وفي تلك اللحظة رأيت سنثيا وهي في طريقها إليّ فتقدمت للقائها، فقالت لي بحدة: لقد حدث شجار مخيف أدلت إليّ دوركاس بكل تفصيلاته.

- أيّ شجار؟

- شجار بين العمة إميلي وبينه، أرجو من كل قلبي أن تكون قد عرفته على حقيقته أخيراً.

- هل شهدَت دوركاس الشجار؟

- لا طبعاً، ولكن تصادف أنها مرت أمام باب غرفة النوم فسمعَت بعض ما قيل. كم أتوق إلى معرفة سبب المشاجرة.

وهنا تذكرت وجه السيدة ريكس الفاتن وتحذيرات إيفيلين هوارد، ولكنني آثرت أن ألوذ بالصمت، في حين كانت سنثيا تكدح ذهنها بحثاً عن الأسباب المحتملة للشجار وأخيراً قالت: ليتها تطرده ولا تتصل به بعد ذلك أبداً.

* * *

كنت في أشد الشوق إلى مقابلة جون ولكنني لم أقع له على أثر، وقد كان من الواضح أن شيئاً خطيراً حدث بعد ظهر اليوم، وقد حاولت أن أتناسى الكلمات القليلة التي سمعتها من حديث ماري كافنديش والسيدة أنجلثروب ولكنها ظلت تلح عليّ فلم أستطِع تناسيها. وعندما هبطت من غرفتي لأتناول طعام العشاء وجدت السيدة أنجلثروب في قاعة الاستقبال ولكن وجهها لم يكن ينمّ عن شيء، وأخيراً جاءت السيدة أنجلثروب وكانت لا تزال بادية الاضطراب، فتناولنا الطعام في صمت، وقد استكان ألفريد أنجلثروب في مقعده فلم يضع وسادة خلف ظهر زوجته ولم يقم بدور الزوج المحب المخلص كما اعتاد أن يفعل.

بعد الطعام قالت السيدة أنجلثروب لماري كافنديش: أرسلي إليّ قهوتي، فلا يزال لدي عمل يستغرق بضع دقائق.

ثم انتقلت مع سنثيا إلى قاعة الاستقبال، وجاءت ماري بأقداح القهوة وقالت: هلاّ حملتِ إلى السيدة أنجلثروب قدحها بعد أن أصب القهوة في القدح يا سنثيا؟

فقال أنجلثروب: دعي ذلك لي يا ماري، فسأحمل أنا القدح إلى إميلي.

ثم صب القهوة في القدح وعبر به الغرفة وهو يسير في حذر وتبعه لورنس، أما ماري فجلست بجوارنا وقالت وهي ترسل بصرها عبر النافذة: الحر شديد الليلة والجو ينذر بعاصفة رعدية.

ولم تستمر تلك الجلسة الهادئة طويلاً، فقد سمعت بعد قليل صوتاً أعرفه جيداً وأمقته من كل قلبي ينبعث من البهو، فهتفَت سنثيا قائلة: هذا هو الدكتور باورشتاين، أليس عجيباً أن يأتي في مثل هذا الوقت؟

نظرت إلى ماري كافنديش، ولكنها ظلت في مكانها ولم يطرأ على وجها الشاحب أيّ تغيير. وبعد لحظة دخل ألفريد أنجلثروب ومعه الدكتور باورشتاين، وكان هذا الأخير يضحك ويقول إنه ليس في حالة تسمح له بدخول قاعة استقبال. والواقع أنه كان في حالة محزنة وكانت ثيابه كلها ملطخة بالأوحال، وصاحت ماري كافنديش عندما رأته:

ماذا دهاك يا دكتور؟

فأجاب: يجب أن أعتذر لكم، والحقيقة أنني لم أكن أريد الدخول ولكن السيد أنجلثروب أصر.

وفي تلك اللحظة أقبل جون قادماً من البهو ورأى باورشتاين فصاح: أنت في حالة يرثى لها يا باورشتاين. تناول القهوة وقل لنا ماذا كنت تفعل.

فضحك باورشتاين وقال إنه اكتشف فصيلة نادرة من نبات العوسج في مكان يصعب الوصول إليه، وعندما حاول ذلك اختل توازنه وسقط في مستنقع، ثم ختم حديثه بقوله: لقد جففَت الشمس ثيابي ولكن منظري لا يزال مزرياً.

وفي تلك اللحظة سمعنا صوت السيدة أنجلثروب وهي تدعو سنثيا. وأسرعَت إليها الفتاة فقالت لها: سوف أذهب إلى فراشي.

وكان باب قاعة الاستقبال مفتوحاً على مصراعيه فنهضت واقفاً عندما نهضَت سنثيا ووقفت على مقربة من جون، وهكذا كان هناك ثلاثة شهود يستطيعون أن يقسموا أنهم أبصروا السيدة أنجلثروب وفي يدها قدح القهوة الذي لم تكن قد تذوقته بعد. وكان قدوم باورشتاين قد أزعجني وخُيِّل إليّ أنه لن ينصرف أبداً، ولكنه نهض أخيراً فتنفست الصعداء، وقال له أنجلثروب: سأرافقك إلى القرية يا دكتور، فيجب أن أقابل وكيل أعمالنا لتصفية بعض الحسابات.

ثم التفت إلى جون وقال: لا ضرورة لأن يسهر أحد في

انتظار عودتي؛ سآخذ مفتاح الباب الخارجي.

* * *

الفصل الثالث
ليلة المأساة

كان الوقت منتصف الليل حين أيقظني لورنس كافنديش من النوم، وكان ممسكاً بشمعة في يده، وأدركت من الانزعاج الذي يبدو على وجهه أن في الأمر شيئاً خطيراً، فاعتدلت جالساً في فراشي وسألته وأنا أحاول جمع شتات أفكاري: ماذا حدث؟

- يُخيل إليّ أن أمي مريضة جداً وأنها مصابة بنوبة، ومن سوء الحظ أن بابها مغلق من الداخل.

- سأذهب معك فوراً.

وثبت من فراشي وتبعته في الدهليز المؤدي إلى الجناح الأيمن، وانضم إلينا جون، وقابلنا في طريقنا خادماً أو اثنين تبدو عليهما دلائل الحيرة والجزع، والتفت لورنس إلى أخيه وسأله: ما الذي يمكننا عمله؟

فلم يجبه جون وراح يعالج مقبض باب السيدة أنجلثروب

بقوة وعنف ولكن دون جدوى، وكان من الواضح أن الباب مُقفل بالمفتاح من الداخل. وفي تلك الأثناء كان أهل القصر جميعاً قد استيقظوا من النوم، ولكن أشد الأصوات إزعاجاً كان الأنين والصراخ المنبعثَين من داخل الغرفة، وكان من الضروري عمل شيء فصاحت دوركاس: حاول أن تدخل من غرفة السيد أنجلثروب يا سيدي... مسكينة يا سيدتي.

ولاحظت فجأة أن ألفريد أنجلثروب ليس موجوداً بيننا وأنه الوحيد الذي لم يظهر. فتح جون باب غرفته، وكان الظلام حالكاً في داخلها، ولكن لورنس جاء في أعقابه والشمعة في يده، واستطعنا أن نرى في نور الشمعة الباهت أن فراش أنجلثروب لم يُمَسّ وأنه ليس هناك ما يدل على أنه كان موجوداً في غرفته، واجتزنا الغرفة إلى الباب الموصل إلى غرفة السيدة أنجلثروب، ولكننا وجدناه مغلقاً من الداخل أيضاً، فما العمل؟

قال جون: أظن أننا يجب أن نحطم هذا الباب، وهي مهمة صعبة ولكن لا بد منها. ولتذهب إحدى الوصيفات لتوقظ بايلي وتقول له أن ينطلق بالسيارة في طلب الدكتور ويلكنز. والآن لنحاول تحطيم هذا الباب... ولكن صبراً لحظة، إن غرفة سنثيا في الجانب الآخر من غرفة أمي. ألا يوجد باب بين الغرفتين؟

فأجابت دوركاس: يوجد باب ولكنه مغلق بالمزلاج ولم يُفتح قط.

- سنرى.

وانطلق يعدو في الدهليز إلى غرفة سنثيا، وهناك وجدنا ماري كافنديش تهز الفتاة بعنف وتحاول أن توقظها. ثم عاد جون راجعاً وهو يقول: لا فائدة، فهو مغلق كذلك. أرى أن نحطم هذا الباب فهو يبدو أقل صلابة من الباب المؤدي إلى الدهليز.

وألقينا بثقلنا على الباب ولكنه قاوم جهودنا، وبعد محاولتين أو ثلاث فُتح بصوت مزعج فاندفعنا إلى الداخل. وكان لورنس لا يزال ممسكاً بالشمعة فرأينا على ضوئها السيدة أنجلثروب ممددة في فراشها ونوبات الألم تهزّ جسدها هزاً عنيفاً، ويبدو أنها قلبت المائدة القائمة بجوار فراشها في إحدى النوبات، ويبدو أن أعضاءها المتشنجة ما لبثت أن تراخت فاستقر رأسها على الوسادة.

وعندئذ أسرع جون فأضاء النور وأمر إحدى الخادمات بإحضار زجاجة عصير الليمون من قاعة الطعام، ثم اقترب من فراش أمه في حين كنت أفتح مزلاج الباب المؤدي إلى الدهليز، وحين فرغت من ذلك نظرت حولي باحثاً عن لورنس كي أقول له إنه لم تبق ضرورة لوجودي وإنهم الآن في غير حاجة إليّ، ولكن الكلمات تجمدت على شفتي، فقد رأيت على وجهه علامة من علامات الهلع لم أرَ لها قط مثيلاً على وجه إنسان... كان شحوبه مخيفاً وكانت يده تهتز بالشمعة فيتناثر ذَوْبها على السجادة، وقد جمدت عيناه في محجريهما من فرط الفزع فتعلقتا بمكان في الجدار، ونظرت بالغريزة إلى حيث كان ينظر ولكنني لم أرَ شيئاً غير عادي، لم أرَ سوى المدفأة وعليها آنية زهر وبعض التحف العادية التي لا يمكن

أن تثير في نفسه كل هذا الهلع.

ويبدو أن آلام السيدة أنجلثروب فقدت الكثير من حدتها لأن العجوز المسكينة استطاعت أخيراً أن تقول بأنفاس لاهثة: أنا أحسن حالاً الآن، لقد كان غباء مني أن أوصد الباب من الداخل.

وسقط ظل على الفراش، فرفعت رأسي فرأيت ماري كافنديش واقفة بالباب وذراعها تحوط خصر سنثيا وكأنها تساعدها على الوقوف، في حين كانت الفتاة تتثاءب بلا انقطاع ويبدو عليها الذهول. وقد لاحظت أن ماري ترتدي الثياب التي اعتادت أن تعمل بها في الحظيرة فأدركت أنني قد أخطأت في تقدير الوقت، والواقع أن بصيصاً من ضوء النهار كان ينبعث من بين شقَّي الستارة، وكانت الساعة فوق المدفأة تشير إلى الخامسة.

وفجأة صدرت من الفراش صرخة مختنقة، فقد كانت العجوز التعسة تعاني من نوبة ألم جديدة وكانت تشنجاتها تبعث على الانزعاج والهلع، فقد تقوس جسدها من فرط الألم حتى باتت تستند في فراشها على رأسها وقدميها، وعبثاً حاولت ماري وجون أن يجرّعاها بعضاً من عصير الليمون.

في تلك اللحظة شق الدكتور باورشتاين طريقه إلى وسط الغرفة، وما إن وقع بصره على السيدة أنجلثروب في فراشها حتى جمد في مكانه، وفي نفس اللحظة صاحت السيدة أنجلثروب بصوت مختنق وهي تحملق نحو الدكتور: ألفريد، ألفريد...

ثم سقط رأسها على الوسادة وسكنت حركتها، وحينئذ أسرع الدكتور إلى الفراش وأمسك بذراعي السيدة أنجلثروب وراح يحركهما بقوة على النحو المألوف في التنفس الصناعي، وأصدر في ذات الوقت بضعة أوامر للخدم، وأشار إلينا بيده فانسحبنا جميعاً نحو الباب ووقفنا نرقبه بأنفاس محتبسة، رغم أننا كنا نشعر في قرارة نفوسنا بأن الأوان قد فات وأنه لم يعد في الإمكان عمل شيء، بل إنني أدركت من قسمات وجهه أنه هو نفسه لا يتوقع أية فائدة، وأخيراً كف عن محاولاته وهز رأسه في حزن.

وفي تلك اللحظة سمعنا وقع أقدام تقترب بسرعة، وكان القادم هو الدكتور ويلكنز، طبيب السيدة أنجلثروب الخاص. وفي كلمات قليلة أوضح باورشتاين كيف أنه كان ماراً بالقصر حين رأى السيارة تغادره لاستدعاء الدكتور ويلكنز فدخل مسرعاً للاطمئنان على السيدة أنجلثروب، ثم أومأ بيده نحو الفراش وصمت، فغمغم الدكتور ويلكنز قائلاً: مسكينة هذه السيدة، لطالما حذرتها من إجهاد نفسها ولكنها لم تعبأ بتحذيري، لقد كان قلبها أضعف من أن يحتمل نشاطها المفرط.

* * *

لاحظت أن باورشتاين يرقب الطبيب بإمعان ولا يحول عينيه عن وجهه، وأخيراً قال: لقد كانت التشنجات غاية في العنف ويؤسفني أنك لم تشهدها بنفسك.

- حقاً؟

- بودي أن أتحدث إليك على انفراد.

ثم التفت إليّ واستطرد قائلاً: هل لديك مانع؟

- ليس لديّ طبعاً.

فخرجنا جميعاً إلى الدهليز وتركنا الطبيبين وحدهما، وقد سمعنا فور خروجنا صرير المفتاح في قفل الباب. وهبطنا الدرَج ببطء، وقد تملكني الشك والقلق، فقد كان لي من القدرة على الاستنتاج والاستدلال ما جعلني أفسر سلوك الدكتور باورشتاين تفسيراً أزعجني وأثار مخاوفي. ثم قالت ماري وهي تمسك بساعدي: ماذا هنالك؟ لماذا يتصرف الدكتور باورشتاين على هذا النحو الشاذ؟

- هل تريدين رأيي؟

- نعم.

- حسناً.

ونظرت حولي لأتحقق من أن أحداً لا يسمعني ثم قلت لها هامساً: أعتقد أنها ماتت مسمومة وأن الدكتور باورشتاين يظن ذلك أيضاً.

فصاحت وهي تلتصق بالجدار وفي عينيها نظرة ذعر: ماذا؟ مستحيل، مستحيل!

ثم تركتني فجأة وصعدت الدرَج مسرعة، فتبعتها خشية أن تفقد وعيها، ولكنها استندت إلى حاجز الدرَج وصاحت

وقد شحب وجهها: دعني فأنا أريد أن أخلو إلى نفسي. دعني وحدي دقيقة أو دقيقتين، اذهب أنت مع الآخرين.

فأطعتها على كره منّي. وكان جون ولورنس قد ذهبا إلى قاعة الطعام فلحقت بهما، وجلسنا هناك صامتين إلى أن ألقيت السؤال الذي أعتقد أنه كان يتردد على شفاه زميلي أيضاً: أين السيد أنجلثروب؟

هزّ جون رأسه وأجاب: ليس في البيت.

والتقت أعيننا. أين كان ألفريد أنجلثروب؟ لم يكن هناك ما يفسّر غيابه. ثم تذكرت كلمات السيدة أنجلثروب الأخيرة قبل أن تلفظ أنفاسها. ترى ماذا كانت تعني؟ وماذا كانت ستقول لو أمهلها الموت قليلاً؟

وأخيراً سمعنا وقع أقدام الطبيبين وهما يهبطان الدرج، وكانت تبدو على ويلكنز دلائل الانفعال الشديد رغم تظاهره بالهدوء، أما باورشتاين فكان جاداً صارم الوجه. قال ويلكنز لجون: أرجو أن توافق على تشريح الجثة يا سيد كافنديش.

فأجاب جون وقد عبرت بوجهه سحابة ألم: وهل هذا ضروري؟

فأجاب باورشتاين: ضروري جداً.

- هل تعني أن...

- أعني أنه لا الدكتور ويلكنز ولا أنا نستطيع إصدار شهادة وفاة في مثل هذه الظروف.

فقال جون وهو يطرق برأسه: في هذه الحالة لا سبيل إلاّ أن أوافق.

فقال ويلكنز بسرعة: شكراً لك، نحن نقترح إجراء التشريح مساء الغد، وأظن أنه لا مفر في هذه الحالة من أن يحدث تحقيق، وهذه إجراءات مألوفة فينبغي ألاّ تنزعجوا.

ثم ساد صمت قصير، وبعده أخرج باورشتاين من جيبه مفتاحين قدمهما إلى جون قائلاً: هذان مفتاحا غرفتي السيدة أنجلثروب وزوجها، فقد أغلقتهما وأرى من الأفضل في الوقت الحاضر أن تظلا مغلقتين.

ثم انصرف الطبيبان، وعندئذ وجدت أن الوقت ملائم للإدلاء بالفكرة التي خطرَت لي منذ دقائق وقلبتها في ذهني على كل وجوهها، ولكنني ترددت، فقد كنت أعرف عن جون أنه إنسان متفائل يفزع من مقابلة المتاعب في منتصف الطريق، ولذلك سيكون من العسير إقناعه بفكرتي، أما لورنس فكان على عكسه تماماً، فقد كان رجلاً واسع الأفق متفتح الذهن يمكنني الاعتماد على تأييده.

وأخيراً حزمت رأيي وقلت: أريد أن أسألك شيئاً يا جون.

- ما هو؟

- هل تذكر صديقي بوارو، ذلك البلجيكي الذي قابلته أمام مكتب البريد؟ لقد كان في وقت ما أشهرَ شرطي سري في أوروبا.

- أجل.

- أريدك أن تسمح لي بأن أدعوه للتحقيق في هذا الموضوع.

- ماذا؟ الآن؟ قبل التشريح؟

- نعم، فمن المفيد أن نكسب بعض الوقت إذا كانت الوفاة جنائية.

فصاح لورنس بغضب: هراء، هذه ضجة جوفاء أثارها باورشتاين. لقد كان ويلكنز خالي الذهن إلى أن أوحى إليه باورشتاين بالفكرة، وباورشتاين معتوه كجميع الأخصائيين، فالسموم هوايته ومن الطبيعي أن يتوهم وجودها في كل مكان.

وأعترف بأن سلوك لورنس أدهشني؛ فأنا لم أرَه قط غاضباً ومتحمساً كما كان في تلك اللحظة، أما عن جون فقد تردد قليلاً ثم قال: أنا لا أوافقك يا لورنس، ومن رأيي أن نُطلق يد هيستنغز وندع له حرية التصرف، وإن كنت أفضّل الانتظار قليلاً، فنحن لا نريد فضيحة لا مبرر لها.

فضحكت قائلاً: لا، لن تكون هناك فضيحة، فبوارو هو الكتمان بعينه.

- حسناً، إذن سأترك لك الأمر فافعل ما يتراءى لك.

نظرت إلى ساعتي، وكانت الساعة السادسة، فقررت أن أشرع فوراً، ولكنني سمحت لنفسي بخمس دقائق قضيتها

في البحث في المكتبة حتى عثرت على كتاب طبي يتضمن وصفاً دقيقاً لأعراض التسمم الإستركنيني.

* * *

الفصل الرابع
بوارو يعمل

كان البيت الذي يقيم به البلجيكيون في القرية يقع على مقربة من الحديقة العامة ويمكن الوصول إليه بسرعة عن طريق الممر الضيق الذي يخترق الحقول، فسرت في هذا الممر، وما كدت أقترب من البيت حتى رأيت رجلاً يعدو نحوي، وكان ذلك الرجل هو أنجلثروب. فأين كان؟ وكيف سيفسر غيابه؟

صاح عندما اقترب مني: يا للكارثة! زوجتي المسكينة! لقد سمعت النبأ في التو واللحظة.

- أين كنت؟

- كنت أراجع الحساب مع دنبي، وقد فرغت من ذلك في الساعة الواحدة صباحاً، ثم اكتشفت أنني نسيت مفتاح الباب الخارجي ولم أشأ أن أزعج أحداً فقضيت بقية الليلة في بيت دنبي.

- وكيف عرفتَ النبأ؟

– لقد مرّ ويلكنز بدنبي وطلب منه أن ينبئني. مسكينة إميلي! لقد كان إنكار الذات من أبرز صفاتها، وكانت تكلّف نفسها فوق ما تطيق في مجال الخدمة العامة.

كان صوته ولهجته يقطران زيفاً ونفاقاً فأحسست نحوه بنفور شديد، ثم قلت له: يجب أن أسرع الآن.

وحمدت الله على أنه لم يسألني إلى أين أذهب. وبعد بضع دقائق كنت أطرق باب بوارو، ولمّا لم أسمع جواباً أعدت الطرق ففُتحت إحدى النوافذ بحذر وأطل منها بوارو الذي دُهش حين رآني، ورويت له بإيجاز قصة المأساة وطلبت معونته فقال: صبراً يا صديقي، سأفتح لك الباب وستروي لي الحادث بإسهاب ريثما أرتدي ثيابي.

ثم فتح الباب وذهب بي إلى غرفته وقدم لي مقعداً، فرويت له القصة كاملة ولم أُخفِ عنه شيئاً مهما كان تافهاً. ذكرت له كيف استيقظت، وحدّثته عن كلمات السيدة أنجلثروب الأخيرة وعن غياب زوجها، وعن المشاجرة التي حدثت والكلمات التي سمعتها من الحديث الذي دار بين ماري والسيدة أنجلثروب، والخلاف الذي حدث بين هذه الأخيرة وإيفيلين هوارد والتلميحات المثيرة التي تضمنتها عبارات إيفيلين.

ومن فرط حرصي على الإيضاح كنت أعيد كلامي وأكرره، حتى ابتسم بوارو وقال: أنت مضطرب الذهن ومنفعل، وهذا طبيعي. سوف نبحث التفصيلات عندما تهدأ فنرتب الحقائق ونضع كلاً منها في مكانها الصحيح ونستبعد

منها ما لا أهمية له.

- ولكن كيف تستطيع التمييز بين المهم وغير المهم؟

هزّ بوارو رأسه بشدة وقال وهو يفتل شاربه: كل حقيقة تقودنا إلى حقيقة أخرى، وهكذا، ثم نضع الحقائق جنباً إلى جنب، فإذا اتصلت واستقامت كان بها، وإلا فعلينا أن نبحث عن الحلقة المفقودة. وبعض التفصيلات قد تكون تافهة، ولكن ويل للشرطي السري الذي يهمل الحقائق التافهة الصغيرة، فكل حقيقة مهما حقرت لها أهميتها.

- لقد قلتَ لي ذلك مراراً، ولذلك حرصت على أن أضع أمامك التفصيلات كاملة بصرف النظر عما أراه هاماً أو غير هام.

- ذاكرتك قوية وقد سردتَ التفاصيل بأمانة ولكن ليس بالنظام المرغوب، ولعل السبب أنك مضطرب ذهنياً، ولهذا السبب أيضاً نسيتَ أن تذكر حقيقة ذات أهمية قصوى.

- ما هي؟

- لم تذكر ما إذا كانت السيدة أنجلثروب قد أكلت جيداً ليلة أمس أم أنها لم تفعل.

فنظرت إليه في دهشة وأجبت: لا أعلم، ولكنني لا أرى أهمية لذلك.

- أنت لا ترى، ولكن هذا مهم جداً.

- لماذا؟ على قدر ما أذكر لم تأكل كثيراً لأنها كانت

منزعجة، وقد أضعف الانزعاج قابليتها للطعام، وهذا أمر طبيعي.

فقال بوارو وهو مستغرق في التفكير: أجل، هذا أمر طبيعي.

ثم فتح أحد الأدراج وتناول منه حقيبة صغيرة وقال: ها أنا ذا على استعداد، سنذهب الآن إلى القصر لبحث الموضوع على الطبيعة.

في الطريق إلى القصر أجال بوارو البصر بين الحقول وهتف: ما أجمل هذه المزارع! مساكين أصحابها فهم لا يستمتعون بجمالها لأنهم الآن في حزن عميق.

ثم نظر إليّ بحدة فشعرت بالخجل، وأدركت أن جو الأسرة يخلو من العاطفة فعلاً، وتساءلت: هل تشعر الأسرة حقاً بحزن عميق؟ لقد كانت العجوز تفتقر إلى موهبة كسب حب مَن حولها. صحيح أن موتها كان صدمة، ولكنه لم يثر حزناً شديداً في الحقيقة.

ويبدو أن بوارو كان يتابع خواطري لأنه هز رأسه وقال: أنت على حق لأنه ليست هناك صلة دم. لقد كانت العجوز كريمة مع آل كافنديش ولكنها كانت مجرد زوجة أب.

- سيد بوارو، هل لك أن تخبرني لماذا أردتَ معرفة ما إذا كانت السيدة أنجلثروب قد أكلت جيداً ليلة أمس أم لا؟ لقد فكرت مليّاً فلم أجد لذلك صلة بالموضوع.

ففكر لحظة ثم أجاب: لا مانع من أن أخبرك، رغم أنني

تعودت ألاّ أدلي بإيضاحات إلا في النهاية. أنا أعتقد أن السيدة أنجلثروب ماتت مسمومة وأن السم قد وُضع لها في القهوة.

- إذن...

- متى تناولتم القهوة؟

- نحو الساعة الثامنة.

- إذن فهي قد تناولت قهوتها فيما بين الثامنة والثامنة والنصف، ومن المعروف أن الإستركنين سم سريع، ولكن في حالة السيدة أنجلثروب لم يظهر تأثير السم إلا في الخامسة من صباح اليوم التالي، أي بعد نحو تسع ساعات، فإذا كانت قد تناولت وجبة كبيرة فسوف يتأخر تأثير السم ولكن ليس كل هذه المدة. هذا مجرد احتمال يجب أن يوضَع في الاعتبار، ولكنك قلت إنها لم تتناول من الطعام إلا قليلاً، ومع ذلك لم يظهر تأثير السم إلا في الصباح التالي، وهذه ظاهرة عجيبة قد يجد لها التشريح تفسيراً، ولكننا يجب أن ندّخرها في ذاكرتنا في الوقت الحاضر.

حين اقتربنا من البيت خرج جون لاستقبالنا، وكانت تبدو على وجهه دلائل التعب والإجهاد وقال: هذا حادث مزعج يا سيد بوارو. هل قال لك هيستنغز أننا لا نريد أن تثار ضجة حول الموضوع؟

- لقد فهمت ذلك.

- المسألة مجرد ارتياب، ولا يوجد بعدُ دليل قاطع.

- سوف نخطو بحذر شديد.

نظر جون إليّ وقال: هل تعلم أن أنجلثروب قد عاد؟

- نعم، لقد التقيت به.

- من الصعب معرفة الطريقة التي ينبغي أن نعامله بها.

فأجاب بوارو بهدوء: هذه الصعوبة ستزول قريباً.

وبدا على جون كأنه لم يفهم، فقال وهو يقدم لي المفتاحين اللذين أخذهما من باورشتاين: دع السيد بوارو يرى كل ما يريد رؤيته.

فسأله بوارو: هل الغرف مغلقة؟

- كان من رأي الدكتور باورشتاين أن من الأفضل إغلاقها.

- هذا يدل على أنه واثق تماماً.

ثم انتقلنا إلى مسرح المأساة حيث شرع بوارو في تفتيش الغرفة بدقة، وكان ينتقل من مكان إلى آخر بخفة عجيبة، أما أنا فقد وقفت بالباب حتى لا أطمس أيّ أثر من الآثار، ولكن بوارو صاح بي: ماذا دهاك يا صديقي؟ لماذا تقف هكذا؟

فأوضحت له أنني لا أريد أن أطمس ما قد يكون هناك من آثار أقدام، فصاح: آثار أقدام! عن أية آثار تتكلم؟ لقد دخل هذه الغرفة جيش برمّته. لا يا صديقي، ادخل وساعدني في أبحاثي. أنا لست بحاجة إلى هذه الحقيبة.

ثم وضع حقيبته الصغيرة على مائدة صغيرة بالقرب من

النافذة، ولكنه ما كاد يفعل ذلك حتى انهارت المائدة، ويبدو أنها كانت مفككة، وسقطت الحقيبة على الأرض، فصاح: يا لها من مائدة! قد يقيم الإنسان في بيت كبير ولكنه لا يجد الراحة التي ينشدها.

قال ذلك ثم واصل البحث، ولفتت نظرَه حقيبة حمراء صغيرة على مائدة الكتابة كان مفتاحها في قفلها، فتناول المفتاح وقدمه إليّ لأفحصه، ولكنني وجدته مفتاحاً عادياً لا يختلف عن أمثاله إلا من وجود قطعة من السلك الرفيع ملفوفة حول مقبضه. ثم انتقل بوارو بعد ذلك إلى فحص إطار الباب الذي حطمناه وتأكد بنفسه من أن المزلاج كان موصَداً فعلاً، ثم فحص الباب المقابل المؤدّي إلى غرفة سنثيا، وكان موصَداً بالمزلاج أيضاً، ففتحه بوارو وحرّكه مراراً وتأكد من أنه لا يُحدث صوتاً أو صريراً، وفجأة لفت نظره شيء في المزلاج نفسه ففحصه بعناية، ثم أخرج من حقيبته ملقطاً انتزع به شيئاً دقيقاً وضعه في مظروف صغير بعناية شديدة.

وكانت فوق إحدى الموائد صينية عليها موقد كحولي وآنية صغيرة وقدح فيه بقية شراب، فوضع بوارو إصبعه في القدح ثم تذوقه وقلب شفته بشيء من الاشمئزاز وقال: كاكاو ممزوج بشيء آخر.

ثم نظر إلى الأشياء المبعثرة حول المائدة الصغيرة هنا وهناك وهتف قائلاً: هذا عجيب!

- يجب أن أعترف بأنني لا أرى ما يدعو إلى العجب.

- حقاً؟ انظر إلى زجاجة المصباح، لقد تحطمت إلى

جزأين ما زالا بجوار المصباح. ثم انظر إلى قدح القهوة، لقد سُحق سحقاً وتحول إلى ذرات صغيرة.

- لا بد أن أحدهم قد وطأه بقدمه.

- تماماً، لقد وطأه أحدهم بقدمه.

قال ذلك واقترب من المدفأة ببطء، ثم وقف هناك يتأمل التحف وينظمها، وأخيراً تحول إليّ وقال: يا صديقي، لقد وطأ بعضهم القدح بقدمه وأحاله إلى مسحوق، إما لأن القدح كان يحتوي على سم الإستركنين وإما (وهذا هو الأخطر) لأنه لم يكن يحتوي على الإستركنين.

فتملكتني الحيرة، ولكنني كنت أعلم أن لا فائدة من مطالبته بالإيضاح! وبعد لحظة التقط حزمة المفاتيح وراح يعبث بها بأصابعه، ثم اختار من بينها مفتاحاً لامعاً وضعه في قفل الحقيبة الحمراء وحركه ففتح القفل، ولكنه بعد تردد قصير عاد فأغلقه ووضع حزمة المفاتيح في جيبه وهو يقول: ليست لي السلطة لفحص ما في هذه الحقيبة من أوراق، ولكن لا بد من فحصها فوراً.

ثم اجتاز الغرفة إلى النافذة اليسرى، ولفتت نظره وهو يفعل ذلك بقعة مستديرة لا يكاد لونها يختلف عن لون السجادة، فجثا على ركبته وفحصها باهتمام، بل وألصق أنفه بها ليتبين رائحتها، وأخيراً صب بعض الكاكاو في أنبوبة اختبار وسد الأنبوبة جيداً، ثم أخرج دفتر مذكراته وقال وهو يكتب: لقد وجدنا في هذه الغرفة ستة أشياء هامة. هل أحصيها لك أم تحصيها أنت؟

قلت بسرعة: بل أحصِها أنت.

- حسناً إذن، الشيء الأول هو قدح القهوة الذي سُحق سحقاً، والثاني هو حقيبة الأوراق التي وجد مفتاحها، والثالث هو هذه البقعة.

- لعلها بقعة قديمة.

- لا، بل هي لا تزال رطبة وتنبعث منها رائحة القهوة. والشيء الرابع هو قطعة من نسيج أخضر داكن، وهي مجرد خيط أو خيطين ولكنها تؤدي الغرض.

- أهي ذلك الشيء الذي وضعتَه في الظرف الصغير؟

- نعم، وربما يثبت أنها قطعة من أحد ثياب السيدة أنجلثروب نفسها ولا أهمية لها، ولكننا سنبحث الأمر، والشيء الخامس هو هذا.

ثم أشار بحركة مسرحية إلى بقعة كبيرة من دهن الشمع منتشرة على الأرض بجوار المكتب الصغير، واستطرد قائلاً: هذه بقعة جديدة، ولولا ذلك لسارعَت إحدى الخادمات إلى إزالتها بقطعة من ورق النشاف ومكواة ساخنة.

- أكبر الظن أنها حدثت أمس لأننا كنا في أشد حالات الجزع والاضطراب، ومن المحتمل كذلك أن تكون شمعة قد سقطت من يد السيدة أنجلثروب نفسها.

- كم شمعة كانت معكم لدى دخولكم هذه الغرفة ليلة أمس؟

شمعة واحدة كان يحملها لورنس كافنديش، وقد استولى عليه فزع شديد شل حركته وهو ينظر إلى شيء حول المدفأة.

فقال بوارو وهو ينظر إلى المدفأة والجدار الذي خلفها: هذا أمر مثير، ولكن شمعة لورنس لم تُحدث هذه البقعة الكبيرة؛ فالبقعة من الشمع الأبيض أما شمعة لورنس التي لا تزال فوق مائدة الزينة فهي وردية اللون، أضف إلى ذلك أنه لا توجد شموع في غرفة السيدة أنجلثروب لأنها تقرأ على ضوء المصباح لا على ضوء الشموع.

- وماذا تفهم من ذلك؟

- يجب أن تستخدم مواهبك يا صديقي.

- والشيء السادس؟ هل هو بقايا الكاكاو؟

- لا، كان بوسعي أن أجعلها الشيء السادس، ولكنني لم أفعل. لا، سأحتفظ بالشيء السادس لنفسي في الوقت الحاضر.

وأجال البصر حول الغرفة بسرعة ثم قال: أظن أنه لم يبق لنا ما نفعله هنا، اللهمّ إلا...

ونظر طويلاً إلى رماد المدفأة ثم قال: النار تشتعل وتدمر، ولكنها قد تُبقي على شيء. فلنرَ.

ثم جثا على ركبتيه وراح يحرك الرماد بقضيب النار بحذر شديد، وفجأة صاح: عليّ بالملقط يا هيستنغز.

ناولته الملقط الذي يُستخدَم عادة في وضع قطع الفحم في المدفأة، وبمهارة فائقة التقط بوارو قطعة صغيرة من الورق نصف محترقة وهتف: ما رأيك في هذه يا صديقي؟

نظرت إلى قصاصة الورق، فرأيت فيها خمسة حروف يتألف منها المقطع الأخير من إحدى الكلمات والمقطع الأول من كلمة أخرى. كانت الورقة من نوع سميك يختلف عن الورق العادي، وتبلجت في ذهني فكرة فصحت: هذه قصاصة من وصية.

- تماماً.

- ولكن هذا لم يدهشك؟

- نعم، لم يدهشني؛ فقد كنت أتوقعه.

قال ذلك ووضع القصاصة في حقيبته بنفس العناية التي يبذلها لكل شيء. وكان عقلي في دوامة فرحت أسائل نفسي: ما سر تلك الوصية؟ ومَن الذي أحرقها؟ هل هو الشخص الذي ترك بقعة الشمع على السجادة؟ لابد أن يكون الأمر كذلك، ولكن كيف استطاع أيّ إنسان دخول الغرفة؟ لقد كانت أبوابها موصَدة من الداخل؟

قال بوارو: سنذهب الآن يا صديقي، ولكنني أريد أن ألقي بعض الأسئلة على الوصيفة. اسمها دوركاس، أليس كذلك؟

ومررنا بغرفة ألفريد أنجلثروب فقضي بوارو بضع دقائق في فحصها، ثم انصرفنا بعد أن أعدنا إغلاقها كما

أعدنا إغلاق غرفة السيدة أنجلثروب، ثم ذهبت به إلى غرفة نوم السيد أنجلثروب في الطابق الأرضي كما طلب وتركته هناك وانطلقت للبحث عن دوركاس، ولكنني عندما عدت بها لم أجده في غرفة النوم فصحت: بوارو، أين أنت؟

- أنا هنا يا صديقي.

كان قد خرج إلى الشرفة ووقف ينظر إلى الحديقة بإعجاب، ثم هتف: حديقة رائعة وتصميم فذ! أنظر إلى هذا الهلال وإلى النجوم التي في وسطه، جمالها يبهر البصر ويخلب اللب، ثم إن المسافات بين أعواد النبات منتظمة تماماً. هل تم تخطيطها وغرسها حديثاً؟

- نعم، بعد ظهر أمس، ولكن هلمّ بنا فقد أحضرت دوركاس.

- أتبخل عليّ بلحظة أمتع فيها بصري بهذا الجمال؟

- ولكن القضية أهم.

- ومن أدراكَ أن هذه الشجيرات ليست لها نفس الأهمية؟

كانت دوركاس تنتظر وقد عقدت ذراعيها فوق صدرها، وكانت خير نموذج للوصيفات الطيبات. وكانت في البداية تنظر إلى بوارو بارتياب، ولكنه عرف كيف يطمئنها ويزيل شكوكها، فقد قدم لها مقعداً وقال: تفضلي بالجلوس يا آنسة.

- شكراً لك يا سيدي.

- هل قضيتِ في خدمة سيدتك وقتاً طويلاً؟

- عشر سنوات يا سيدي.

- هذا وقت طويل حقاً، وكنتِ خلاله مثال الأمانة والإخلاص.

- كانت كريمة معي إلى أقصى حد يا سيدي.

- إذن لا مانع لديك من الإجابة على بعض الأسئلة. أنا ألقيها بموافقة السيد كافنديش التامة.

- طبعاً يا سيدي.

- سأبدأ إذن بأن أسألك عن الأحداث التي وقعَت بعد ظهر أمس، فهل تشاجرت سيدتك مع أحد؟

- نعم يا سيدي، ولكنني لا أعرف ما إذا كان يجب أن...

وصمتت وترددت فنظر إليها بوارو بحدة وقال: أصغي إليّ يا دوركاس. يجب أن أعرف كل التفصيلات عن تلك المشاجرة، ولا تظني أن هذا إهدار لأسرار سيدتك. لقد ماتت سيدتك ويجب أن نعرف كل الحقائق لكي نثأر لها، لا شيء يستطيع أن يعيد الحياة إلى سيدتك ولكننا نرجو -إذا كانت هناك جريمة- أن نقدم المجرم للعدالة لينال جزاءه.

فقالت دوركاس بحماسة: وهذا ما أرجوه أيضاً، أنا لا أريد ذكر الأسماء ولكن يوجد شخص هنا لا يطيقه أحد،

وقد كان يوماً أسود ذلك اليوم الذي وضع فيه قدمه في هذا البيت.

فانتظر بوارو قليلاً حتى هدأت ثورتها ثم قال: لنتكلم عن المشاجرة الآن. ماذا تعلمين عنها؟

- حدث بعد ظهر أمس أنني كنت أسير في الردهة.

- في أيّ ساعة؟

- كانت الساعة الرابعة أو بعد ذلك بقليل. كنت أسير في الردهة فسمعت أصواتاً عالية غاضبة منبعثة من هذه الغرفة، ولم أكن أريد أن أسترق السمع ولكن الأصوات طرقت أذني، وكان باب الغرفة مغلقاً ولكن صوت سيدتي كان حاداً وواضحاً فسمعتها تقول: "لقد كذبتَ عليّ وخدعتني". ولم أسمع ماذا قال السيد أنجلثروب لأن صوته كان خافتاً، ولكن سيدتي أجابت قائلة: "كيف تجرؤ، لقد آويتك وكسوتك وأطعمتكَ، فأنت مَدين لي بكل شيء، ولكنكَ قابلت صنيعي بتلويث اسمنا وجلب العار لنا"، ومرة أخرى لم أسمع ماذا قال، ومضت سيدتي تقول: "لا شيء مما تقوله يمكن أن يغيّر ما حدث، أنا أعرف واجبي بوضوح وقد اتخذت قراري، ويجب أن تعلم أنه لا الخوف من التشهير ولا الفضيحة بين الزوج وزوجته يمكن أن يثنيني عن تنفيذ قراري"، ثم سمعت وقع أقدامهما وهما يهمّان بمغادرة الغرفة فأسرعت بالابتعاد.

- هل أنت واثقة من أن ما سمعتِه هو صوت السيد أنجلثروب؟

- نعم يا سيدي، وإلا فصوت من هذا؟

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- عدت إلى الردهة بعد ذلك وكان الهدوء شاملاً. وفي الساعة الخامسة دقّت السيدة أنجلثروب الجرس وطلبَت منّي أن أحضر لها قدحاً من الشاي، وكانت شاحبة الوجه بادية الانفعال، ثم قالت لي: "لقد تلقيت صدمة شديدة يا دوركاس"، فأجبتها: "أنا آسفة لذلك يا سيدتي، ولكنكِ ستكونين أحسن حالاً وأهدأ نفساً متى تناولتِ قدحاً من الشاي"، وكان بيدها شيء لا أعلم هل هو رسالة أم مجرد ورقة عادية، وقد ظلت تحدق إليها وكأنها لا تصدق ما كان مكتوباً فيها، ثم همسَت قائلة وكأنها نسيَت وجودي: "هذه الكلمات القلائل تغير كل شيء"، ثم قالت تحدثني: "لا تثقي في الرجال يا دوركاس، فهم ليسوا أهلاً للثقة". ثم انصرفت مسرعة وأحضرت لها قدحاً من الشاي، فشكرتني واحتست الشاي وبدت أحسن حالاً وقالت: "أنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعل، فالفضيحة بين الزوج وزوجته أمر مخيف، ربما كان الأفضل أن أكتم الأمر ما استطعت"، وفي تلك اللحظة جاءت السيدة كافنديش فصمتت سيدتي ولم تَزِد.

- وهل كانت الرسالة لا تزال في يدها؟

- نعم يا سيدي.

- ماذا كان من المتوقع أن تفعل بها بعد ذلك؟

- لا أعلم يا سيدي، لعلها كانت ستضعها في تلك

الحقيبة الحمراء التي تحفظ فيها أوراقها.

- هل تعوّدت أن تضع الأوراق الهامة في تلك الحقيبة؟

- نعم يا سيدي، وكانت تأتي بالحقيبة من غرفتها كل صباح وتعود بها في المساء.

- متى فقدت مفتاح هذه الحقيبة؟

- أمس، وفي وقت العشاء طلبت مني أن أهتم بالبحث عنه، وقد كانت منزعجة لفقده.

- ولكن كان لديها مفتاح إضافي، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، كان لديها مفتاح إضافي.

قالت ذلك وهي تنظر إليه في فضول ودهشة، وأعترف أنني لم أكن أقلّ منها دهشة، أما بوارو فقد ابتسم وقال: لا تَعجبي يا دوركاس، فمهنتي هي البحث عن خفايا الأمور. هل هذا هو المفتاح المفقود؟

وأخرج من جيبه المفتاح الذي وجده في قفل الحقيبة، وحملقت دوركاس إلى المفتاح وخُيل إليّ أن عينيها تكادان تبرزان من محجرَيهما.

- هذا هو يا سيدي، ولكن أين وجدته؟ لقد كنت أبحث عنه في كل مكان.

- هو لم يكن في أيّ مكان أمس ولكنه كان اليوم.

والآن لننتقل إلى موضوع آخر: هل لدى سيدتك ثوب أخضر داكن؟

دُهشت دوركاس لهذا السؤال غير المنتظَر وأجابت: لا يا سيدي.

- هل أنتِ واثقة؟

- نعم يا سيدي.

- هل لدى أيّ شخص آخر في هذا البيت ثوب أخضر؟

فأطرقت الوصيفة برأسها مفكرة ثم أجابت: لدى الآنسة سنثيا ثوب سهرة أخضر.

- داكن اللون؟

- لا.

- هل لدى أحد ثوب أخضر داكن؟

- لا.

لم يَبدُ على بوارو أنه أحس بخيبة الأمل أو بأيّ شعور آخر وقال: حسناً، لنترك هذا الموضوع وننتقل إلى سواه. هل لديك من الأسباب ما يحملك على الاعتقاد بأن سيدتك تناولت دواء منوِّماً؟

- لا يا سيدي، أنا واثقة أنها لم تتناول عقاراً منوماً ليلة أمس.

- ولِم هذه الثقة؟

- كل الثقة يا سيدي.

- إذن فالأمر واضح. وبالمناسبة، هل طلبَت منكِ سيدتك التوقيع على أية ورقة ليلة أمس؟

- لا يا سيدي.

- عندما عاد السيد هيستنغز والسيد لورنس مساء أمس وجدا سيدتك منهمكة في كتابة رسائل، فهل لديك أية فكرة عن الأشخاص الذين كتبَت إليهم؟

- لا يا سيدي، لأنني خرجت مساء أمس. ولكن ربما كانت آني تعرف، رغم أنها فتاة مهملة، وقد بلغ من إهمالها أنها لم تحمل أقداح القهوة ليلة أمس، وهذا يحدث دائماً عندما لا أكون موجودة لمراقبة العمل.

- أرجو أن تدعي هذه الأقداح حيث تركت يا دوركاس لأنني أريد أن أفحصها.

- حسناً يا سيدي.

- متى خرجتِ مساء أمس؟

- في الساعة السادسة يا سيدي.

- شكراً لك يا دوركاس. هذا كل ما أردت الاستفسار عنه.

ثم نهض واقفاً ومشى إلى النافذة واستطرد قائلاً: أنا معجب بهذه الحديقة! كم بستانياً يعملون هنا؟

- ثلاثة فقط يا سيدي، وقد كانوا خمسة قبل الحرب. وكانت الحديقة رائعة حقاً، ولكن لم يبقَ من هؤلاء الخمسة سوى ماننغ العجوز ووليم الشاب وامرأة من نساء هذا العصر ترتدي بنطالاً؛ هذا زمن عجيب حقاً يا سيدي!

- سوف تعود الأيام القديمة الجميلة يا دوركاس، أو أن هذا ما نرجوه على الأقل. والآن، هل لك أن ترسلي آني؟

- سأفعل يا سيدي.

وما إن انصرفت دوركاس حتى سألت بوارو: كيف عرفتَ أن السيدة أنجلثروب تناولت عقاراً منوماً، وما حكاية المفتاح المفقود وبديله؟

- عرفت موضوع العقار المنوم من هذا.

ثم أخرج من جيبه علبة صغيرة من الورق المقوّى من نوع العلب التي يضع فيها الصيادلة المساحيق والأقراص، فسألته: أين وجدتَ هذه العلبة؟

- في أحد الأدراج بغرفة السيدة أنجلثروب.

- وهي رقم ٦ في قائمة الأشياء التي وجدناها.

- ربما، ولكن ألم يلفت نظرك شيء عجيب فيها؟

فتناولت العلبة وفحصتها ثم أجبت: لم يلفت نظري شيء فيها، إنها علبة عادية تماماً.

- انظر إلى البطاقة الملصَقة عليها.

قرأت البطاقة بعناية، وكان مكتوباً عليها: «تؤخَذ جرعة قبل النوم عند الضرورة»، فأجبته: أنا لا أرى فيها شيئاً غير عادي.

- ألم تلاحظ أنها خالية من اسم الصيدلية؟

- آه، هذه عجيب حقاً!

- هل سمعتَ أن صيدلية أرسلَت علبة كهذه لا تحمل اسمها؟

- لا.

- ومع ذلك فتفسير هذه الظاهرة بسيط جداً أيها الصديق، ولا ينبغي أن تجهد نفسك في البحث عنه.

وفي تلك اللحظة دخلت آني. كانت في مقتبل العمر وعلى جانب من الجمال، فتحدث بوارو إليها في الموضوع دون مقدمات فقال: لقد أرسلتُ في طلبك يا آني لأنني ظننت أن بوسعكِ أن تذكري لي شيئاً عن الرسائل التي كتبَتها السيدة أنجلثروب ليلة أمس. كم كان عددها؟ ومن الأشخاص الذين أرسلت إليهم؟

ففكرت آني قليلاً ثم أجابت: كانت أربع رسائل: إحداها للآنسة إيفيلين، والثانية للسيد ويلز المحامي، ولا أذكر لمن كانت الرسالتان الأخريان. آه، كانت الثالثة لمحلات روس في تادمنستر، أما الرابعة فلا أذكر لمن كانت.

- فكّري.

- أنا آسفة يا سيدي.

- لا بأس، سأسألك عن شيء آخر، يوجد في غرفة السيدة أنجلثروب وعاء صغير فيه بقية من الكاكاو. هل كانت تتناول الكاكاو كل ليلة؟

- نعم يا سيدي، فقد كان يوضع في غرفتها كل مساء وتقوم هي بتسخينه في أثناء الليل حين ترغب في تناوله.

- هل هو كاكاو فقط؟

- نعم يا سيدي، كاكاو باللبن مع ملعقة من السكر.

- ومن الذي يحمله إليها؟

- أنا يا سيدي.

- دائماً؟

- نعم يا سيدي.

- في أيّ وقت؟

- عندما أذهب إلى غرفتها لأسدل الستائر.

- هل تأتين به مباشرة من المطبخ؟

- لا يا سيدي، فالموقد في المطبخ لا يتسع لكل ألوان الطعام ولذلك تقوم الطاهية بعمل الكاكاو في وقت مبكر قبل إعداد طعام العشاء، وقد جرت العادة أن أحمله وأضعه على مائدة في الدهليز ثم أذهب به إليها فيما بعد.

- دهليز الجناح الأيسر، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، دهليز الجناح الأيسر.

- متى حملتِ الكاكاو إلى الدهليز ليلة أمس؟

- في الساعة السابعة والربع يا سيدي.

- ومتى ذهبتِ به إلى غرفة السيدة أنجلثروب؟

- عندما قمت بإسدال الستائر في الساعة الثامنة، وكانت السيدة أنجلثروب قد أوت إلى فراشها وأنا أفعل ذلك.

- إذن فقد ظل الكاكاو على المائدة في الدهليز خلال فترة ما بين السابعة والربع والثامنة؟

- أجل يا سيدي.

ثم استطردَت قائلة بسرعة وقد احمرّ وجهها: وإذا كان قد وُجد فيه ملح فأنا لست المسؤولة يا سيدي لأنني لا أضع الملح مطلقاً على مقربة منه.

- ولماذا تعتقدين أنه كان فيه ملح؟

- لأنني رأيت الملح على الصينية يا سيدي.

- رأيتِ الملح على الصينية؟!

- نعم، كان ملحاً خشناً مما يُستخدَم في المطبخ، ولم أفطن إلى وجوده عندما حملت الكاكاو من المطبخ ولكنني رأيته عندما هممت بالدخول إلى غرفة سيدتي، وكان ينبغي أن

أعود به إلى المطبخ وأن أطلب من الطاهية إعداد كمية أخرى من الكاكاو، ولكنني كنت في عجلة من أمري لأن دوركاس كانت قد خرجت، ثم لأنني ظننت أن الملح ربما لم يسقط في الكاكاو وأنه قد وُضع في الصينية خطأ أو سهواً ولذلك أزلته بمئزري وحملت الكاكاو إلى سيدتي.

استطعت بصعوبة أن أسيطر على مشاعري عندما سمعت هذا الكلام. لقد قدمَت إلينا آني -دون أن تشعر- دليلاً على جانب عظيم من الأهمية، وكم سيكون ذعرها متى علمت أن الملح الخشن لم يكن سوى مادة الإستركنين، أشد سم قاتل عرفه الإنسان.

وقد عجبت لهدوء بوارو! كانت سيطرته على نفسه تبعث على الدهشة، وقد انتظرت سؤاله التالي بفارغ الصبر، ولكنه أصابني بخيبة أمل حين سألها: عندما دخلتِ غرفة السيدة أنجلثروب هل كان الباب الموصل إلى غرفة الآنسة سنثيا موصَداً بالمزلاج؟

- نعم يا سيدي، فهو موصَد بصفة دائمة ولم يُفتَح قط.

- والباب الموصل إلى غرفة السيد أنجلثروب، هل لاحظت أنه موصَد بالمزلاج أيضاً؟

ترددت الفتاة لحظة ثم أجابت: لا أعلم يا سيدي. لقد كان الباب مغلقاً ولكنني لا أستطيع أن أجزم بأنه كان موصَداً بالمزلاج.

- بعد أن غادرت الغرفة، هل أوصدَت السيدة أنجلثروب الباب وراءك؟

- لا يا سيدي، ولكن كان من المنتظر أن تفعل ذلك فيما بعد، فقد اعتادت أن تغلق الباب ليلاً، أعني الباب المؤدي إلى الدهليز.

- عندما نظفت الغرفة أمس هل لاحظت وجود بقعة من الشمع على السجادة؟

- بقعة من الشمع؟! لا يا سيدي، لم يكن لدى السيدة أنجلثروب شموع فقد كانت تقرأ على ضوء المصباح.

- لو أن بقعة كبيرة من دهن الشمع كانت على السجادة، هل أنت واثقة من أنك سترينها؟

- نعم يا سيدي، وكنت سأزيلها بقطعة من ورق النشاف ومكواة ساخنة.

وهنا كرر بوارو السؤال الذي ألقاه على دوركاس: هل لدى سيدتك ثوب أخضر؟

- لا يا سيدي.

- أعني ثوباً، أو معطفاً.

- لا يا سيدي.

- أو لدى شخص آخر في هذا البيت؟

ففكرت الفتاة طويلاً ثم أجابت: لا يا سيدي.

- هل أنت واثقة؟

- نعم يا سيدي.

- شكراً جزيلاً. هذا كل ما أردت معرفته.

وما إن انصرفت الفتاة حتى هتفت قائلاً: دعني أهنئك يا بوارو، هذا اكتشاف عظيم حقاً.

- وما هو هذا الاكتشاف العظيم؟

- السم كان في الكاكاو لا في القهوة، وهذا يفسّر لماذا لم يظهر تأثيره إلا في الصباح الباكر، ذلك لأنها لم تتناول الكاكاو إلا في نحو منتصف الليل.

- هل تعتقد إذن أن الإستركنين كان في الكاكاو؟

- طبعاً، وإلا فماذا يمكن أن تكون المادة التي وجدتها آني في الصينية وظنّتها ملحاً؟

فأجاب بوارو بهدوء: ربما كانت ملحاً حقيقة.

فهززت كتفي ولم أجد ما أقوله، وإذا كان هذا منطقه فلا بد أن تكون الشيخوخة قد أوهنت ذكاءه. وكان بوارو يرقبني في هدوء وفي عينيه نظرة خبيثة، ثم قال: يخيل إليّ أنك غير راض عنّي أيها الصديق؟

- ليس من حقي أن أملي عليك رأياً يا عزيزي بوارو، فلك وجهة نظرك كما أن لي وجهة نظري.

فقال وهو ينهض واقفاً: هذا خير ما يمكن أن يقال.

والآن، لقد فرغت من هذه الغرفة. وبالمناسبة، لمَن هذا المكتب الصغير الذي أراه في ركن الغرفة؟

- إنه مكتب السيد أنجلثروب.

فقال وهو يحاول فتح أدراجه: آه، إنه مغلق، ولكن ربما يمكن فتحه بأحد مفاتيح السيدة أنجلثروب.

ثم أخرج من جيبه حزمة المفاتيح وأخذ يجربها الواحد تلو الآخر إلى أن دار أحدها في القفل وفتحه، فألقى بوارو نظرة سريعة على الأوراق والملفات المرتبة في الدرج. وقد أدهشني كثيراً حين لم يمدّ إليها يداً واكتفى بقوله: من المحقق أن السيد أنجلثروب رجل منظم.

أجال النظر حوله ثم قال: ليس في هذه الغرفة ما يفيدنا، كل ما وجدناه فيها هو هذا.

ثم أخرج من جيبه مظروفاً قديماً متجعّداً دفع به إليّ ففحصته، وكانت عليه ثلاث أو أربع كلمات كررها كاتبها كما يفعل الإنسان حين يختبر قلماً جديداً.

* * *

الفصل الخامس

السم

سألت بوارو بفضول: أين وجدت هذا المظروف؟

- في سلة المهملات. هل تعرف الخط؟

- نعم، إنه خط السيد أنجلثروب، ولكن ما معنى هذه الكلمات؟

- لا أعلم. هلم بنا كي نفحص أقداح القهوة.

- وما الفائدة من ذلك بعد أن علمنا أن السم كان في الكاكاو؟

فقال وهو يرفع يديه نحو السماء: يا لهذا الكاكاو! تعال يا صديقي ودعني أفحص أقداح القهوة، وهذا لن يقلل من نظريتك عن الكاكاو.

ثم ذهبنا إلى قاعة الاستقبال حيث كانت أقداح القهوة لا تزال في أماكنها كما تركناها، فطلب منّي بوارو أن أروي كل ما

حدث في تلك الليلة السابقة، وأصغى إليّ بانتباه شديد وتحقق من مكان كل قدح، ثم قال: إذن فقد وقفَت السيدة كافنديش بجانب الصينية التي عليها الأقداح وصبّت القهوة، ثم اقتربَت من النافذة حيث كانت تجلس مع الآنسة سنثيا. أجل، ها هي الأقداح الثلاثة، وهذا القدح الذي على المدفأة لا بد أنه قدح لورنس كافنديش، ولكن قدح مَن هذا الذي على الصينية؟

- قدح جون كافنديش، وقد رأيته حين وضعه هناك.

- حسناً، هذه خمسة أقداح. أين قدح السيد أنجلثروب إذن؟

- لم يتناول القهوة.

- صبراً لحظة يا صديقي.

تناول قطرة من كل قدح وتذوقها، ثم وضعها في أنبوبة اختبار خاصة، وقال أخيراً: كانت لديّ فكرة، ولكن يبدو أنني كنت مخطئاً.

هممت بأن أقول له إن أبحاثه حول القهوة ستنتهي به حتماً إلى طريق مسدود، ولكنني آثرت الصمت. وفي تلك اللحظة أقبل جون ينبئنا بأن طعام الإفطار قد أُعِدّ ودعا بوارو لتناوله معنا فوافق، ولاحظت أن جون قد استرد هدوءه وعاد إلى طبيعته السمحة المتزنة. كانت أحداث الليلة السابقة قد صدمته وأزعجته، ولكن بصفة مؤقتة عاد بعدها إلى حالته الطبيعية، فقد كان رجلاً ضيق الأفق ضحل الخيال على عكس أخيه تماماً.

وقد قضى جون ساعات الصباح في عمل متصل، فكتب طائفة من البرقيات بينها برقية إلى إيفيلين هوارد، ثم أرسل النعي إلى الصحف واضطلع بغير ذلك من الواجبات المتصلة بالموقف، وقال يحدث بوارو: هل لي أن أسأل كيف تسير الأمور؟ هل تشير أبحاثك وتحرياتك إلى أن موت أمي كان طبيعياً أم يجب أن نعدّ أنفسنا لما هو أسوأ؟

فأجاب بوارو: أظن أن من الأفضل ألاّ تخدع نفسك بآمال زائفة يا سيد كافنديش. هل تستطيع أن تخبرني بوجهة نظر باقي أفراد الأسرة؟

- أخي لورنس يعتقد أننا نثير ضجة لا مبرر لها ويقول إن جميع الدلائل تشير إلى أن الوفاة كانت نتيجة أزمة قلبية.

- والسيدة كافنديش؟

- ليست لدي أية فكرة عن وجهة نظر زوجتي في الموضوع.

ساد صمت عميق استمر بضع دقائق إلى أن قال جون: هل قلتَ إن السيد أنجلثروب قد عاد؟

فأومأ بوارو برأسه علامة على الإيجاب، ثم استطرد بأنه يتحتم علينا أن نعامله كالعادة. ولكن أين الإنسان الذي لا يشعر بالغثيان وهو يتناول الطعام مع قاتل؟

قال بوارو: أعلم أنه موقف عصيب بالنسبة لك يا سيد كافنديش، ولكنني أودّ أن ألقي عليك سؤالاً: السيد أنجلثروب

تعذّر في عدم العودة إلى البيت ليلة أمس بأنه نسي أن يأخذ معه مفتاح الباب، أليس كذلك؟

- بلى.

- هل أنت واثق من أنه نسي المفتاح حقاً ولم يأخذه معه؟

- الواقع أنني لم أفكر في ذلك، فنحن نضع المفتاح في دُرْج في الردهة عادة. سأذهب لأرى هل لا يزال هناك أم لا؟

- لا ضرورة لذلك يا سيد كافنديش، لقد فات الأوان الآن. أنا واثق أنك ستجده في مكانه، وإذا كان السيد أنجلثروب قد أخذه فقد تهيأ له الوقت الكافي لإعادته.

- ولكن هل تظن أن...

- أنا لا أظن شيئاً. لو أن أحداً رأى المفتاح في الدرج قبل عودة السيد أنجلثروب صباح اليوم لكان دليلاً في مصلحته، هذا كل ما في الأمر.

فبدت الحيرة على وجه جون ولم يجب.

* * *

جلس أفراد الأسرة حول مائدة الإفطار في جو خال من المرح، ولكن لم تكن هناك آهات أو تأوهات أو وجوه مكتئبة حزينة، وقد وجدت أنني كنت على حق حين ظننت أن دوركاس سوف تكون هي الشخص الوحيد الذي أحزنته

المأساة. ولا أريد أن أتحدث عن ألفريد أنجلثروب، فقد كان سلوكه كأرمل حزين ينضح بالنفاق إلى حد يثير النفور والاشمئزاز. ترى هل كان يعلم أننا نرتاب فيه؟ وهل يشعر في قرارة نفسه بالخوف أم أنه مطمئن إلى أن جريمته ستمر بغير عقاب؟ ولكنِ هل الجميع يرتابون فيه؟ هل ترتاب فيه السيدة كافنديش مثلاً؟

نظرت إليها وهي جالسة على رأس المائدة، رشيقة هادئة غامضة، وقد لزمَت الصمت المطلق فلم تفتح شفتيها، ومع ذلك فقد كنت أشعر بشخصيتها القوية تسيطر علينا جميعاً. وكذلك سنثيا الشابة اليافعة، هل ترتاب أيضاً في أنجلثروب؟ كانت تبدو متعبة مريضة، فهي بطيئة الحركة ثقيلة الجفنين، فسألتها عما إذا كانت تشعر بوعكة فأجابت بصراحة: نعم، أنا أشعر بصداع مخيف.

فقال بوارو: هل لكِ في قدح آخر من القهوة يا آنسة؟ إنها خير ملطّف للصداع.

ثم تناول قدحاً فملأه بالقهوة وهمّ بأن يضع فيه سكّراً، فقالت له: لا، لا أريد سكراً.

- لا تريدين سكراً؟ هل تتجاوزين عن تناول السكر على سبيل الاقتصاد.

- لا، أنا لا أتناول القهوة بالسكر مطلقاً.

- حقاً؟

سمعته يتمتم بكلمات خافتة كمن يحدث نفسه،

فنظرت إليه، وقد أدهشني أن أرى عينيه الخضراوين تتألقان كعيني القط. وفي تلك اللحظة فُتح الباب ودخلت دوركاس، ثم قالت وهي تنظر إلى جون: السيد ويلز يطلب مقابلتك يا سيدي.

تذكرت هذا الاسم؛ إنه اسم المحامي الذي كتبَت إليه السيدة أنجلثروب رسالة في الليلة السابقة. وقد نهض جون على الفور وهو يقول: اذهبي به إلى مكتبي.

نظر إلينا وقال: هذا محامي أمي.

ثم أردف قائلاً بصوت خافت: وهو أيضاً الذي يتولى تحقيق أسباب الوفيات الجنائية، فهل تريدان مقابلته؟

فوافقنا وتبعناه إلى قاعة المكتب، وكان يسير بخطى واسعة فتخلفنا عنه قليلاً، وانتهزت الفرصة كي أسأل بوارو: هل سيجري تحقيق في أسباب الوفاة إذن؟

أومأ بوارو برأسه وهو شارد الذهن، وخُيِّل إليّ أنه يفكر في مشكلة عويصة فسألته: ماذا بك؟ أنت لا تُصغي إليّ.

- الواقع يا صديقي أنني منزعج جداً.

- لماذا؟

- لأن الآنسة سنثيا تتناول القهوة بغير سكر.

- ماذا تعني؟ هل أنت جاد؟

- جاد جداً، يوجد شيء لا أفهمه. لقد صدقَت غريزتي.

- أية غريزة؟

- الغريزة التي دفعتني إلى الإصرار على فحص أقداح القهوة. صه، لا تُزِد الآن.

ثم دخلنا قاعة المكتب وأغلق جون الباب. كان السيد ويلز رجلاً لطيفاً حادّ العينين في نحو الأربعين من عمره، وقد قدّمنا جون إليه وأوضح له سبب وجودنا وقال: على أننا ما زلنا نرجو ألا يكون هناك ما يستوجب التحقيق.

- طبعاً، طبعاً، ولكن من بواعث الأسف أن التحقيق أمر لا بد منه في حالة عدم وجود شهادة طبية.

- أجل، أظن ذلك.

- الدكتور باورشتاين رجل بارع، ويقال إنه من أعظم الخبراء في السموم.

فقال جون بامتعاض: هذا صحيح.

ثم أضاف بعد تردد قصير: هل ستطلبنا جميعاً للإدلاء بأقوالنا؟

- لا بد من سماع أقوالك أنت، والسيد أنجلثروب، وقد نسمع أقوال آخرين كإجراء شكلي.

فتنهد جون وبدت على وجهه دلائل الارتياح، الأمر الذي أدهشني؛ فلم يكن هناك ما يبعث على الارتياح.

قال السيد ويلز: لقد فكرت في تحديد يوم الجمعة

للتحقيق في أسباب الوفاة حتى يجد الطبيب متسعاً من الوقت لتقديم تقريره. التشريح سيتم الليلة فيما أعتقد.

- أجل.

- هل يلائمك يوم الجمعة إذن؟

- يلائمني تماماً.

-لا أظنني بحاجة إلى التعبير عن بالغ أسفي وحزني لهذا الحادث المؤلم يا سيد كافنديش.

وهنا تكلم بوارو لأول مرة منذ دخلنا قاعة المكتب فقال: ألا تستطيع أن تقدم لنا أية معونة لإماطة اللثام عن سر هذا الحادث يا سيدي؟

- أنا؟

- نعم، فقد علمنا أن السيدة أنجلثروب بعثت إليك برسالة ليلة أمس، ولا بد أنك تسلمتها صباح اليوم.

- لقد تسلمتها فعلاً، ولكنها خالية من أية معلومات، فكل ما جاء فيها أنها تدعوني لمقابلتها صباح اليوم كي تستطلع رأيي في أمر هام.

- ألم تُشِر في رسالتها إلى طبيعة هذا الأمر الهام؟

- لسوء الحظ أنها لم تشر.

- هذا أمر يؤسَف له.

ثم ساد الصمت، واستغرق بوارو في التفكير لحظة ثم تحول إلى المحامي وقال: سيد ويلز، أريد أن ألقي عليك سؤالاً أرجو ألاّ يتعارض مع واجبات مهنتك: من الذي يرث السيدة أنجلثروب في حالة وفاتها؟

فتردد المحامي قليلاً ثم أجاب: هذا أمر سيُعلَن عنه قريباً جداً، فإذا سمح السيد كافنديش...

فقاطعه جون قائلاً: طبعاً، طبعاً.

- لقد نصّت آخر وصية لها في آب (أغسطس) من العام الماضي على منح بعض المال للخدم، وفيما عدا ذلك فقد أوصت بكل ثروتها للسيد جون كافنديش ابن زوجها.

- أليس في ذلك -مع الاعتذار للسيد كافنديش- ظلم كبير للورنس كافنديش الابن الثاني لزوجها؟

- لا، لأن الأب أوصى بأن تؤول أملاكه بعد وفاة الزوجة إلى ابنه الأكبر جون وأن تؤول ثروته من المال إلى ابنه الثاني لورنس، ولذلك أوصت السيدة أنجلثروب بثروتها الخاصة لجون لأنها تعلم أنه ورث القصر والمزرعة ويحتاج إلى المال لصيانتهما والإنفاق عليهما.

- ولكن ما حكم القانون الإنكليزي في وصية الأب بعد أن تزوجت أرملته؟

- هذا ما كنت أهم بإيضاحه يا سيد بوارو، فوصية الأب أصبحت ملغاة ولا قيمة لها.

- هل كانت السيدة أنجلثروب نفسها تعرف هذه الحقيقة؟

- لا أعلم، ربما كانت تعرفها.

فقال جون بلهجة التأكيد: بل كانت تعرفها، وقد كنا بالأمس فقط نتحدث عن الوصايا التي يبطلها الزواج.

- سؤال أخير يا سيد ويلز: لقد قلتَ «وصيتها الأخيرة»، فهل كتبت السيدة أنجلثروب وصايا أخرى سابقة؟

- كانت تكتب وصية واحدة على الأقل كل عام، وقد كانت تغير رأيها باستمرار فتعطي هذا وتحرم ذاك وفقاً لمزاجها.

- هب أنها كتبت وصية جديدة دون علمك وأوصت فيها بكل ثروتها لشخص ليس من أفراد الأسرة، ولنقل مثلاً أنها الآنسة إيفيلين هوارد، فهل يكون ذلك مفاجأة لك؟

- لا، إطلاقاً.

- آه.

وبذلك انتهت أسئلة بوارو. وبينما كان جون يتحدث إلى المحامي بشأن أوراق السيدة أنجلثروب الخاصة اقتربت من بوارو وسألته بصوت خافت: هل تعتقد أن السيدة أنجلثروب أوصت بكل ثروتها لإيفيلين هوارد؟

فأجاب وهو يبتسم: لا.

- إذن لماذا سألت؟

- صه.

كان جون قد تحول إلى بوارو في تلك اللحظة ليقول له: هل تأتي معنا يا سيد بوارو؟ سنفحص أوراق أمي، فقد ترك السيد أنجلثروب هذه المهمة لي وللسيد ويلز، وسنبدأ الآن بالمكتب الذي في غرفة نومها ثم ننتقل بعد ذلك إلى غرفة نومها، فهناك حقيبة حمراء صغيرة تحتفظ فيها بأوراقها الهامة دائماً.

قال المحامي: ربما يسفر البحث عن وجود وصية جديدة.

فقال بوارو بهدوء: توجد وصية جديدة.

هتف جون والمحامي في آن واحد: ماذا تقول؟

- أقول توجد، أو على الأصح كانت توجد وصية جديدة.

- وأين هي الآن؟

- أُحرقت.

- أُحرقت؟!

-نعم، انظر.

ثم أخرج قصاصة الورقة التي التقطها من مدفأة السيدة

أنجلثروب وقدمها إلى المحامي وأوضح له بإيجاز أين وكيف وجدها.

- ولكن ربما كانت وصية قديمة؟

- لا أظن ذلك، إنها وصية جديدة أرجّح أنها كُتبت بعد ظهر أمس.

هتف الرجلان في وقت واحد: مستحيل.

فتحول بوارو إلى جون وقال: إذا سمحتَ لي باستدعاء البستاني، فأنا أستطيع أن أثبت لك ذلك.

- طبعاً، طبعاً. ولكنني لا أرى...

فأسكته بوارو بإشارة من يده وقال: افعل ما قلت لك واسأل ما شئت من الأسئلة بعد ذلك.

- حسناً.

دقّ الجرس فأقبلَت دوركاس فقال لها: دعي ماننغ يحضر فوراً فأنا أريد التحدث معه.

وانتظرنا في جو مشحون بالقلق والترقب إلى أن دخل البستاني وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وكان رجلاً متقدماً في السن تنم نظراته عن اليقظة والذكاء، فقال له جون: أصغ إليّ يا ماننغ، سيلقي عليك هذا السيد بعض الأسئلة وأريدكَ أن تجيب عليها.

قال البستاني وهو ينظر إلى الشرطي السري القصير

القامة بشيء من الاستهتار: حسناً يا سيدي.

فتقدم بوارو خطوة إلى الأمام وقال وهو ينظر إلى البستاني: لقد غرست بعض الشجيرات في الجزء الجنوبي من الحديقة بعد ظهر أمس، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، وكان وليم يعمل معي وأنا أغرسها.

- ثم أطلّت السيدة أنجلثروب من نافذة غرفتها ونادتك، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، لقد نادتني.

- إذن أخبرني بأسلوبك: ماذا حدث بعد ذلك؟

- لم يحدث شيء ذو أهمية؛ فقط طلبت من وليم أن يركب دراجته ويذهب إلى القرية لشراء ورقة ذات أوصاف خاصة، فأحضر الورقة المطلوبة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لا شيء، عدنا إلى الحديقة.

- ألم تَدعُكما مرة أخرى؟

- بلى، دعتنا مرة أخرى وسمحَت لنا بدخول غرفتها، وطلبت منّا أن نوقع باسمينا في ذيل الورقة الكبيرة التي أحضرها وليم، وذلك بعد أن وضعَت هي إمضاءها عليها.

- ألم ترَ ما كان مكتوباً في الورقة فوق إمضاءها؟

- لا يا سيدي، فقد كانت هناك قطعة من الورق النشاف تحجب الكتابة.

- هل وقّعتَ باسمك على الورقة؟

- نعم يا سيدي، أنا أولاً ثم وليم بعد ذلك.

- وماذا فعلَت السيدة بالورقة؟

- طوتها ووضعتها في مظروف كبير، ثم وضعت المظروف في حقيبة حمراء.

- متى حدث ذلك؟

- في نحو الساعة الرابعة.

- هل أنت واثق؟ ألم يكن ذلك في نحو الساعة الثالثة والنصف؟

- نعم، لقد كانت الساعة بعد الرابعة لا قبلها.

- شكراً لك يا ماننغ.

نظر البستاني إلى سيده فأمره بالانصراف، وبعد قليل هتف جون قائلاً: يا لها من مصادفة!

- ماذا تعني؟

- أليس من المصادفات العجيبة أن تكتب أمي وصية في يوم وفاتها؟

فسعل ويلز وقال بجفاء: هل أنت واثق أنها مصادفة يا

سيد كافنديش؟

- ماذا تعني؟

- ألم تقل لي إن أمك تشاجرت مع شخص ما بعض ظهر أمس؟

فصاح جون مرة أخرى وقد بدت عليه علامات الفزع: أوضح... ماذا تعني؟

- كانت نتيجة تلك المشاجرة أن أسرعت أمك إلى كتابة وصية جديدة، ونحن لن نعرف أبداً مضمون هذه الوصية لأنها لم تتحدث إلى أحد بشأنها، ومن المحقق أنها كانت تعتزم استطلاع رأيي في أمرها ولكن لم تُتَح لها الفرصة. لقد اختفت الوصية ودُفن سرها مع صاحبتها، ولا يمكن أن يكون ذلك من قَبيل المصادفة يا سيد كافنديش. ألا ترى مثلي يا سيد بوارو أن لهذه الحقائق مغزاها الواضح؟

فقال جون: مهما يكن مغزاها فنحن نشكر للسيد بوارو أنه ألقى ضوءاً على موضوع تلك الوصية الجديدة، فلولاه لما عرفنا شيئاً من أمرها. هل لي أن أسألك يا سيد بوارو عن الأثر أو الآثار التي قادتك إلى هذه الحقيقة؟

فابتسم بوارو وأجاب: هناك شيئان، بضع كلمات على مظروف قديم، وشُجيرات غرست حديثاً.

همّ جون بأن يلقي مزيداً من الأسئلة لولا أن سمعنا في تلك اللحظة صوت سيارة تقترب، فنظرنا عبر النافذة ورأينا

السيارة تقف بالباب، فصاح جون على الفور: إيفيلين! معذرة يا سيد ويلز.

ثم خرج مسرعاً، فنظر إليّ بوارو مستفسراً فأجبته: هذه هي الآنسة إيفيلين هوارد.

- آه، يسرني أنها عادت.

- هذه امرأة ذات قلب كبير وعقل راجح، ولكنها ليست ذات جمال.

وحذوت حذو جون فخرجت لاستقبال إيفيلين، ولم تكد عيناي تلتقيان بعينيها حتى شعرت بوخز الضمير، فقد سبق أن حذرتني فضربت بتحذيرها عرض الحائط، ولكن سرعان ما أثبتت الأحداث أنها كانت على حق حين عبّرت عن ارتيابها في نيات أنجلثروب، ومن يدري؟ فلعلها لو بقيت في ستايلز لما حدثت المأساة ولما استطاع الرجل أن يتجنب عينها الساهرة. ولكنني شعرت بالارتياح حين شدّت على يدي بحرارة ورأيت في عينيها نظرة حزن لا نظرة تأنيب.

كان احمرار عينيها يدل على أنها بكت كثيراً، ولكن حزنها لم يلطف من خشونتها وصراحتها المألوفتين، حيث قالت: لقد تأهبت للقدوم حالما تسلمت البرقية، كانت السيارة أسرع وسيلة للوصول إلى هنا.

فسألها جون: هل تناولتِ طعام الفطور يا إيفيلين؟

- لا.

– ذلك ما ظننته. الطعام على المائدة وسآمرهم بأن يعدّوا لك قدحاً من الشاي. آه، هذا هو السيد بوارو يا إيفيلين، وهو يتعاون معنا.

شدت إيفيلين على يد بوارو، ولكنها نظرت إلى جون بارتياب وسألته: ماذا تعني بقولك إنه يتعاون معنا؟

– أعني أنه يتعاون معنا في التحقيق.

– ولماذا التحقيق؟ ظننتكم قد وضعتموه في السجن.

– وضعنا من؟

– مَن؟! ألفريد أنجلثروب طبعاً.

– حذارِ يا عزيزتي إيفيلين، فلورنس يعتقد أن أمي ماتت بأزمة قلبية.

– إنه مغفل. لقد قلت لكم إن ألفريد أنجلثروب سيقتلها، وقد قتلها.

– لا تصرخي هكذا يا إيفيلين، يحسن بنا أن نكتم شكوكنا في الوقت الحاضر على الأقل، فجلسة تحقيق أسباب الوفاة ستُعقَد يوم الجمعة.

– لا بد أنكم جُننتم! سوف يلوذ الرجل بالفرار قبل موعد الجلسة، فهو ليس من الغباء بحيث ينتظر حتى يلتفّ حبل المشنقة حول عنقه.

– ماذا تريدينني أن أفعل يا إيفيلين؟ هل أمسك به من

عنقه وأقتاده إلى مركز الشرطة؟

- افعل أيّ شيء يميط اللثام عن جريمته.

رثيت لجون، فقد أدركت من حديث إيفيلين أن عيشها مع أنجلثروب تحت سقف واحد سوف يكون مهمة عسيرة لا قِبَل له باحتمالها، وقد رأيت في قسمات وجهه أنه يشعر بذلك أيضاً. ولم يجد جون وسيلة للخلاص إلا الفرار فغادر المكان مسرعاً.

وما إن جلست إيفيلين إلى مائدة الطعام حتى قال لها بوارو: أريد أن أسألك يا آنسة.

- سل.

- أنا أريد مساعدتك.

- سوف يسرني أن أساعدك في شنق ألفريد، ولكن شنقه لا يكفي، بل يجب تمزيقه إرباً كما كانوا يفعلون بالمجرمين في القرون الوسطى.

- إذن فنحن نعمل لغاية واحدة لأنني أيضاً أريد شنق المجرم.

- ألفريد أنجلثروب؟

- هو أو سواه.

- لا يوجد سواه، فلولا قدومه إلى هذا البيت لما قُتلت إميلي المسكينة. لست أعني أنها لم تكن محاطة بالحيتان،

ولكن الآخرين كانوا ينشدون مالها فحسب وكانت حياتها في أمان، ثم جاء أنجلثروب فلم يمضِ شهران حتى قُتلت.

- صدقيني يا آنسة هوارد، إذا كان أنجلثروب هو القاتل فلن يفلت من يدي. ولكنني أرجو أن تثقي بي، فمعونتك تهمّني كثيراً وسأقول لك السبب. السبب هو أن عينيك هما العينان الوحيدتان في هذا البيت الحزين اللتان ذرفتا الدموع حزناً على الفقيدة.

فتنهدت الآنسة هوارد وقالت بصوت أقل خشونة: ذلك لأنني كنت أحبها. كانت أنانية إلى حد ما كما كانت كريمة جداً، ولكنها كانت تحرص على أن تذكّر الآخرين بفضلها عليهم، ولذلك لم يحبها أحد، أما أنا فكان موقفي منها يختلف عن الآخرين، وقد اتخذت هذا الموقف منذ البداية فقلت لها إن مرتبي هو مبلغ كذا، فلا أريد بنساً واحداً أكثر منه ولا أريد هدايا أو ملابس أو تذاكر مسرح، فلم تفهمني وفسّرت احترامي لنفسي بأنه عجرفة، لكنني أحببتها وسهرت عليها، إلى أن جاء ذلك الوغد الذلق اللسان فذهب إخلاصي ووفائي طَوال السنين أدراج الرياح.

- أنا أفهم شعورك يا آنسة، وهو شعور طبيعي.

في تلك اللحظة أطل جون برأسه ليدعونا إلى غرفة السيدة أنجلثروب، وكان هو وويلز قد فرغا لتوهما من فحص أوراق مكتب غرفة النوم. وعندما وصلنا إلى غرفة نوم السيدة أنجلثروب في الطابق الأول سألت بوارو: ألا تزال المفاتيح معك يا بوارو؟

فقدّم بوارو المفاتيح إلى جون الذي فتح الباب ودخلنا، واتجه المحامي إلى حيث كان المكتب وتبعه جون وهو يقول: أعتقد أن أمي كانت تحتفظ بأوراقها الهامة في هذه الحقيبة الحمراء.

فأخرج بوارو حزمة المفاتيح من جيبه وقال: دعني أفتحها، فقد أغلقتها صباح اليوم على سبيل الاحتياط.

- ولكنها مفتوحة.

- مستحيل.

- انظر.

ورفع الغطاء فصاح بوارو: يا إلهي! لقد كان المفتاحان معي طَوال الوقت.

ثم أسرع إلى الحقيبة وفحصها وقال: لقد فُتح القفل عنوة.

وانهالت الأسئلة في وقت واحد: ولكن من فتحها؟ ولماذا؟ ومتى؟ لقد كان باب الغرفة مغلقاً.

فأجاب بوارو على هذه الأسئلة بطريقة شبه آلية، قائلاً: مَن؟ هذا هو السؤال. لماذا؟ ليتني أعلم. متى؟ لقد كنت هنا منذ ساعة، ولا بد أنها فُتحت خلال تلك الفترة، أما باب الغرفة فقفله من النوع العادي وربما أمكن فتحه بأحد مفاتيح الغرفة الأخرى.

نظر بعضنا إلى بعض في ذهول، وسار بوارو إلى المدفأة

حيث راح يعبث ببعض التحف، وكان يبدو هادئاً في الظاهر ولكنني لاحظت أن يديه ترتجفان بشدة، وأخيراً قال: إليكم ما حدث؛ كان في هذه الحقيبة دليل ما يثبت التهمة على القاتل، فرأى القاتل أن من الضروري تدمير هذا الدليل قبل أن يُكتشَف فجازف بدخول الغرفة، وكانت مجازفة هائلة، فوجد الحقيبة مغلقة فاضطر إلى فتحها عنوة. إن إقدامه على هذه المجازفة دليل على أهمية الشيء الذي كان في الحقيبة.

- ولكن ما هو هذا الشيء؟

- لا أعلم. ربما كان وثيقة ما، أو كان تلك الورقة التي رأتها دوركاس في يد سيدتها بعد ظهر أمس. يا إلهي، ما أشد غبائي! ما كان يجب أن أترك الحقيبة هنا، والآن ها قد اختفى الدليل، أُعدم... ولكن هل أُعدم حقاً، أليس ثمة أمل؟

ثم انطلق من الغرفة كالمجنون، فتبعته، ولكنني ما إن وصلت إلى نهاية الدرَج حتى كان قد اختفى عن ناظري. ووقفَت ماري كافنديش على الدرج تشيعه ببصرها ثم قالت لي: ماذا أصاب صديقك العجيب يا سيد هيستنغز؟ لقد مرّ بي كالثور الهائج!

- إنه منزعج لأمر ما.

وأردت أن أغيّر مجرى الحديث فسألتها: هل تقابلا؟

- مَن تعني؟

- السيد أنجلثروب والآنسة هوارد.

- هل تظن أن لقاءهما سيؤدّي إلى كارثة؟

- ألا تظنين ذلك أيضاً؟

فأجابت وهي تبتسم في هدوء: بلى، وأنا أريد أن أشهد ثورة عارمة تنقّي الجو، فنحن الآن نفكر ونتكلم قليلاً.

- جون يشفق من لقائهما ويحرص على التفريق بينهما.

- آه، جون.

قلبت شفتيها فقلت بحدّة: إن جون رجل طيب.

فنظرت إليّ بفضول، وقد دُهشت حين قالت: أنت مخلص لصديقك، وأنا أقدّر لك ذلك.

فاجأني قولها هذا كثيراً، فقلت لها: لكنك أنت أيضاً صديقة وفية؟

- أنا صديقة سيئة.

- لماذا تقولين ذلك؟

- لأن هذه هي الحقيقة، فأنا ألاطف أصدقائي اليوم وأنساهم غداً.

ولست أدري ماذا دفعني لأن أقول العبارة التالية التي تنم عن فساد الذوق، قلت لها: ولكنك تلاطفين الدكتور باورشتاين دائماً.

وقد ندمتُ في الحال على ما قلت، فقد رأيت عضلات وجهها تتصلب وخُيل إليّ وكأن ستاراً من فولاذ قد فصل بينها وبيني، ودون أن تنطق بكلمة دارت على عقبيها وأخذت تصعد الدرَج وتركتني ألهث خجلاً.

بعد قليل لحق بي بوارو وقال: دعنا نذهب يا صديقي.

- هل فرغت من عملك هنا؟

- نعم، مؤقتاً. هل ترافقني إلى القرية؟

- حباً وكرامة.

وعندما هممنا بالانصراف فُتح الباب فجأة ودخلت سنثيا، فأفسح لها بوارو الطريق وقال لها: أرجو المعذرة يا آنسة، ولكن هل حدث مرة أنك قمت بتحضير الدواء للسيدة أنجلثروب؟

فاحمرّ وجه الفتاة وأجابت: نعم، أعددته لها مرة واحدة فقط.

- وهل وضعتِه في هذه العلبة؟

وأخرج من جيبه العلبة الفارغة التي ليس على بطاقتها اسم الصيدلية، فأطرقت برأسها علامة الإيجاب.

- ماذا كان نوع المسحوق؟ سلفونال أم فيرونال؟

- لا هذا ولا ذلك، بل كان مسحوق البرومايد.

- شكراً لك يا آنسة. طاب يومك.

حين ابتعدنا عن البيت نظرتُ إليه فإذا بعينيه كزمردتين خضراوين، وكنت قد لاحظت أن عينيه الخضراوين تتألقان كعيني القط كلما انفعل بفكرة أو حادث، فقلت له: إذن فهذا هو سر العلبة التي لا تحمل اسم الصيدلية؟ كان يجب أن أفطن إليه من تلقاء نفسي.

ولكنه كان مستغرقاً في التفكير فلم يَبدُ عليه أنه سمع ما قلت، وأخيراً قال وهو يشير بإصبعه من فوق كتفه في اتجاه القصر: لقد عثروا هناك على شيء جديد ذكره لي السيد ويلز ونحن نرقى الدرج.

- ما هو؟

- عثرا في دُرج المكتب الموجود بغرفة النوم على وصية للسيدة أنجلثروب يدل تاريخها على أنها كُتبت قبل زواجها الأخير وتوصي فيها بكل ثروتها وممتلكاتها لألفريد أنجلثروب، ويبدو أنها كتبتها في فترة الخطوبة، وقد كانت الوصية مفاجأة للسيد ويلز والسيد كافنديش، فقد كانت مكتوبة على أحد النماذج المطبوعة وقد شهد عليها اثنان من الخدم.

- وهل علم أنجلثروب بتلك الوصية؟

- لا أدري.

- لقد أوقعتنا تلك الوصايا كلها في حيرة شديدة. ولكن

حدثني، كيف أدركتَ من الكلمات المكتوبة على المظروف القديم أن هناك وصية جديدة؟

- ألم يتفق لك وأنت تكتب رسالة أنك شككتَ في طريقة هجاء إحدى الكلمات؟

- هذا يحدث كثيراً ولجميع الناس.

- حسناً، ألم يتفق لك في مثل هذه الحالة أنك أخذت في كتابة هذه الكلمة على ورقة خارجية لكي ترى ما إذا كانت تبدو صحيحة أم لا؟ ذلك هو ما فعلَته السيدة أنجلثروب، فقد حارت بين كلمتين فتناولت مظروفاً قديماً وكتبت عليه هذه الكلمات: «كل ما أملك... كل ما أمتلك»، وكررَت ذلك مراراً كي ترى أيّ العبارتين تتفق مع الأسلوب المألوف في كتابة الوصايا. أضف إلى ذلك قصاصة الورق التي وجدتُها في المدفأة، وهي من النوع المتين الأزرق اللون الذي تكتب عليه الوصايا، فقد أوحت إليّ بأن السيدة أنجلثروب قد كتبت وثيقة تتضمن هذه الكلمات.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: وأكدَت ذلك حقيقةٌ أخرى، وهي أن الخدم أغفلوا تنظيف البيت صباح اليوم نتيجة للاضطراب الذي ساد بعد المأساة، فوجدت على أرض غرفة النوم بالقرب من المكتب آثار وحل وتراب، وقد كان الجو صحواً خلال الأيام الأخيرة فلا يمكن أن تكون الأحذية العادية قد نقلت الوحل إلى أرض غرفة النوم، وبينما كنت أطل من النافذة لاحظت أن بعض الشجيرات قد غُرست حديثاً وأن

طين الحديقة يشبه في لونه آثار الوحل والتراب التي رأيتها على أرض غرفة النوم، ثم فهمت منك أن الشجيرات غرست بعد ظهر أمس فأدركت أن أحد البستانيَّين أو كليهما قد دخل غرفة النوم، ولو أرادت السيدة أنجلثروب أن تتحدث إليهما فقط لكان بوسعها أن تطل عليهما من النافذة وتقول لهما ما تريد دون أن تسمح لهما بدخول غرفة النوم. وهكذا رجّحتُ أن تكون السيدة أنجلثروب قد كتبت وصية جديدة ودعت البستانيَين إلى غرفة نومها للتوقيع على الوصية كشاهدين.

- يجب أن أعترف لك بالبراعة يا بوارو، ولكن ثمة سؤال آخر: كيف عرفتَ أن مفتاح الحقيبة قد فُقد؟

- أنا لم أعرف ذلك ولكنني توقعته، فقد رأينا المفتاح في قفل الحقيبة وعثرنا على حزمة مفاتيح السيدة أنجلثروب، فلماذا لم يكن هذا المفتاح في الحزمة؟ وإذا كان قد فُقد ثم عُثر عليه فلماذا لم تردّه السيدة أنجلثروب إلى مكانه في الحزمة؟ وقد وجدت ضمن المفاتيح مفتاحاً جديداً لامعاً ثبت أنه المفتاح الإضافي لقفل الحقيبة، إذن لا بدّ أن يكون شخص آخر هو الذي وضع المفتاح القديم في القفل.

- وهذا الشخص هو ألفريد أنجلثروب دون شك؟

فنظر إليّ بوارو بدهشة وسأل: هل أنت واثق من أنه المجرم؟

- كل القرائن تثبت ذلك.

- على العكس، هناك قرائن عديدة في مصلحته.

- أنا لا أعرف منها سوى قرينة واحدة.

- وما هي؟

- أنه لم يكن في البيت ليلة أمس.

- ولكن هذه القرينة ضده.

- وكيف ذلك؟

- لو كان يعلم أن زوجته ستموت ليلة أمس فمن الطبيعي أن يعمل على الاختفاء عن البيت تجنباً للشبهات، ولكن اختفاءه يثير احتمالين: إما أنه كان يعلم بما سيحدث، وإما أنه كانت لديه أسباب خاصة أدت إلى اختفائه.

- وما هذه الأسباب الخاصة؟

هزّ بوارو كتفيه وأجاب: وكيف أعلم؟ ربما كانت أسباباً مُشينة، فهذا الرجل قد يكون وغداً ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أنه قاتل.

هززت رأسي دلالة على عدم الاقتناع فقال بوارو: يبدو أننا لسنا على وفاق. إذن دعنا من هذا الموضوع وسوف تثبت الأيام أينا على حق، والآن لنتحدث عن القضية: بمَ تفسر ظاهرة غلق جميع أبواب غرفة النوم بالمزلاج من الداخل؟

- يجب أن ننظر إلى الموضوع بطريقة منطقية، فالأبواب كانت مغلقة من الداخل وقد رأينا ذلك بأعيننا، ولكن بقعة الشمع على السجادة وإحراق الوصية في المدفأة يدلاّن على أن شخصاً دخل الغرفة خلال الليل.

- كلام واضح، أكمل حديثك.

- ولما كان هذا الشخص لم يدخل من النافذة أو بمعجزة فلا بد أنه دخل من الباب وأن تكون السيدة أنجلثروب قد فتحت له الباب بنفسها، وهذا يدعم اعتقادي بأن هذا الشخص هو الزوج، فما كانت السيدة أنجلثروب لتفتح بابها في مثل تلك الساعة إلا لزوجها.

فهز بوارو رأسه وقال: ولماذا تفتح له الباب؟ لقد أوصدت الباب الموصل بين غرفتيهما بالمزلاج وهذا عمل غير طبيعي من جانبها، ثم إنها تشاجرت معه بعد ظهر ذلك اليوم. لا، بل هو آخِر رجل يمكن أن تسمح له بدخول غرفتها.

- ولكنك توافقني على أنها هي التي فتحت الباب بنفسها؟

- هناك احتمال آخر، وهو أنها ربما نسيت أن توصد بابها المؤدي إلى الدهليز بالمزلاج وذهبت لتنام، ثم استيقظت فيما بعد وأوصدته.

- هل هذا هو رأيك حقاً يا بوارو؟

- لا، هذا مجرد احتمال. والآن لنتكلم في موضوع آخر. ماذا تستنتج من العبارات التي سمعتَها من الحديث الذي دار بين السيدة كافنديش والسيدة أنجلثروب؟

- الواقع أنني نسيت كل شيء عن هذا الحديث. إنه لغز غامض بالنسبة لي ولا أستطيع أن أتصور كيف يمكن لامرأة

ذات كبرياء وثقافة كالسيدة كافنديش أن تقحم نفسها بمثل هذا العنف في أمر لا يعنيها.

- تماماً.

- ومهما يكن الأمر فإنه حديث لا أهمية له ولا ينبغي أن نأخذه بعين الاعتبار.

فتنهد بوارو وقال: ألم أقل لك مراراً وتكراراً إن كل شيء يجب أن يوضَع في الاعتبار، فإذا لم تتفق الحقيقة مع النظرية فلتذهب النظرية إلى الجحيم.

كنا قد وصلنا إلى بيت بوارو فصعدنا إلى غرفته، وجلسنا أمام نافذة تطل على القرية ولفحت وجوهنا نسمة دافئة أنبأتنا بأننا سنستقبل يوماً شديد الحر، وفجأة وقع بصري على شاب يعبر الطريق بخطى واسعة وقد ارتسمت على وجهه دلائل الهلع فقلت: انظر يا بوارو.

فأطل بوارو من النافذة ورأى الشاب وقال: هذا هو السيد ميس الصيدلي، وهو في طريقه إلينا.

والواقع أن الشاب توقف أمام الباب وتردد قليلاً، ثم راح يدق الباب بعنف فصاح به بوارو: صبراً، انتظر لحظة.

ثم أومأ إليّ أن أتبعه وهبط الدرج مسرعاً وفتح الباب، فانفجر الشاب على الفور قائلاً: معذرة على الإزعاج يا سيد بوارو، ولكنني علمت أنك قد عدت للتو من قصر ستايلز.

- هذا صحيح.

فبلل الشاب شفتيه بلسانه وقال: توجد شائعات كثيرة في القرية عن وفاة السيدة أنجلثروب.

ثم استطرد قائلاً بصوت خافت: إنهم يقولون إنها ماتت مسمومة، فهل هذا صحيح؟

- هذا أمر لا يحسمه إلا الأطباء يا سيد ميس.

- طبعاً، طبعاً، ولكن أخبرني يا سيد بوارو: هل ورد ذكر اسم الإستركنين؟

فأجابه بوارو بكلمات لم أسمعها، وانصرف الشاب وهو أشد اضطراباً مما كان عند قدومه. ثم أغلق بوارو الباب والتقت عيناه بعيني، فأومأ برأسه علامة الإيجاب وقال: أجل، سيكون لديه ما يقوله في جلسة التحقيق.

فهممت بأن ألقي عليه سؤالاً، ولكنه أسكتني بحركة من يده وقال: ليس الآن يا صديقي، ليس الآن؛ ذهني مضطرب ويجب أن أنظم أفكاري.

ثم جلس في مقعده وظل بضع دقائق لا ينطق بكلمة ولا يبدي حراكاً، وأخيراً تنهد وقال: حسناً، لقد مرت الدقائق العصيبة وأصبحت أصفى ذهناً الآن. لم تنضج حقائق القضية كلها بعد ولكن هناك حقيقتان لهما مغزاهما.

- وما هما؟

- الأولى حالة الطقس أمس، وهذه مسألة ذات أهمية قصوى.

- لقد كان الطقس صحواً أمس.

- لقد سجل ميزان الحرارة درجة ٨٠ فهرنهايت في الظل، وذلك هو مفتاح السر كله.

- وما الحقيقة الثانية؟

- الحقيقة الهامة الثانية هي أن السيد أنجلثروب يرتدي ثياباً عجيبة وله لحية سوداء ويضع على عينيه نظارات.

- هل تهزل يا بوارو؟

- أنا جاد تماماً.

- هب أن هيئة المحلفين أصدرت قرارها بإدانة ألفريد أنجلثروب، فماذا سيكون مصير نظرياتك؟

- نظرياتي لن يزعزعها جهل اثني عشر رجلاً تورطوا في الخطأ. ولكنني واثق من أن المحلفين لن يصدروا مثل هذا القرار؛ أولاً لأنهم ريفيون ويخشون مسؤولياته الخطيرة، وثانياً لأن السيد أنجلثروب يُعَد الآن من كبار الملاك في المنطقة، أضف إلى هذا وذاك أنني لن أسمح بأن يصدر مثل هذا القرار.

- لن تسمح؟

- أصغ إليّ يا صديقي، أنا لم أكفّ طَوال الوقت عن التفكير في السيدة أنجلثروب المسكينة. حقاً هي لم تكن محبوبة ولكنها كانت كريمة معنا نحن البلجيكيين، وأنا أشعر

بأنني مدين لها.

هممت بمقاطعته ولكنه مضى يقول: دعني أقل لك شيئاً يا هيستنغز، إن السيدة أنجلثروب ما كانت لتغفر لي لو أنني تركت زوجها يُعتقَل الآن في حين أنني أستطيع بكلمة مني أن أنقذه.

* * *

الفصل السادس

التحقيق

لم يفتر نشاط بوارو طَوال الفترة السابقة لجلسة التحقيق، فاجتمع مرتين مع السيد ويلز، وسار على قدميه مسافات طويلة في الحقول. وساءني أنه لم يذكر لي شيئاً عن تحركاته وأهدافه، وذات يوم ذهبت لزيارته في بيته ولم أجده، فخطر لي أنه ربما ذهب إلى مزرعة ريكس للقيام ببعض التحريات، فسرت بين الحقول على أمل أن ألقاه ولكنني لم أقع له على أثر، وقررت بعد تردد أن أواصل السيد إلى المزرعة، وبينما كنت في طريقي إليها التقيت بمزارع عجوز نظر إليّ بخبث وسألني: هل أنت من سكان هذا القصر؟

- نعم، وقد جئت للبحث عن صديق أعتقد أنه مر من هنا.

- هل صديقك رجل قصير القامة من أولئك البلجيكيين الذين يقيمون في القرية؟

- نعم، هل رأيته؟

- لقد جاء إلى هنا مراراً، ولكن هل هو صديقك حقاً؟

وابتسم ساخراً واستطرد قائلاً: ما أخبثكم يا رجال القصر، فأنتم تختلقون مختلف الأعذار للتسلل إلى مزارع الآخرين.

- ماذا تعني؟ هل يأتي الكثيرون من رجال القصر إلى هنا؟

فغمز بعينه وقال: بل أعني واحداً بعينه، سخياً غاية السخاء ولا ضرورة لذكر اسمه.

تركت الرجل ومضيت في طريقي. إذن فقد كانت إيفيلين هوارد على حق! وشعرت بالاشمئزاز حين فكرت في ألفريد أنجلثروب وفي الوجوه التي ينفق فيها أموال زوجته بسخاء، ولم أتمالك من التساؤل: ترى هل كان لزوجة ريكس الفاتنة دور في الجريمة أم أن هدفها كان الحصول على المال فحسب؟

* * *

كانت هناك فكرة تضايق بوارو وتقضّ مضجعه؛ فقد ذكر لي أكثر من مرة أنه يعتقد أن دوركاس أخطأت في تحديد الوقت الذي حدثت فيه المشاجرة. ولم يجد بداً من استدعاء الوصيفة لاستجوابها مرة أخرى، وحاول في حديثه معها أن يقنعها بأن المشاجرة لا بد قد وقعت في الرابعة والنصف لا في الرابعة، ولكن دوركاس لم تتزحزح عن موقفها.

عُقدت جلسة التحقيق في أسباب الوفاة في موعدها، وجلستُ مع بوارو في أحد أركان القاعة لمتابعة ما يجري. كان الشاهد الأول هو جون كافنديش، فوصف الظروف التي اقترنت بوفاة أمه والحالة التي كانت عليها المتوفاة حين استيقظ في الساعة الأولى من الصباح وسرعته لنجدتها.

ثم دُعي الدكتور باورشتاين للإدلاء بشهادته، فحبس الحاضرون أنفاسهم واتجهت جميع الأنظار إلى هذا الأخصائي الكبير الذي يعد من أعظم خبراء العصر في العقاقير السامة. وبعبارات موجزة لخص باورشتاين نتيجة التشريح، وهي تؤكد أن الوفاة نتجت عن التسمم بالإستركنين وأن الكمية التي تناولتها المتوفاة لا تقل عن ثلاثة أرباع الغرام وربما تزيد عن الغرام قليلاً.

فسأله المحقق: ألا يمكن أن تكون تناولت السم بطريق الخطأ؟

- لا أظن ذلك؛ فالإستركنين ليس من المواد التي تستخدم في أغراض منزلية وقد فُرضت قيود على تسويقه.

- هل دلّت فحوصك على الطريقة التي حدث بها تناول السم؟

- لا.

- لقد وصلت إلى القصر قبل الدكتور ويلكنز، أليس كذلك؟

- بلى، فقد كانت سيارة القصر في طريقها إلى الدكتور

ويلكنز، وكنت ماراً بالقصر فأسرعت في الدخول.

- هل لك أن تروي لنا ما حدث بعد ذلك؟

- دخلت غرفة السيدة أنجلثروب فوجدتها في حالة تشنج مخيفة، فنظرت إليّ وصاحت: ألفريد، ألفريد...

- هل من المحتمل أن يكون السم قد وُضع في القهوة التي حملها إليها زوجها بعد العشاء؟

- ربما، ولكن الإستركنين عقار سريع المفعول تظهر أعراضه خلال فترة تتراوح بين ساعة وساعتين من تناوله، ويتأخر مفعوله في ظروف معينة لم تتوفر في الحالة التي نحن بصددها، وقد تناولت السيدة أنجلثروب القهوة بعد العشاء في الساعة الثامنة ولم تظهر الأعراض إلا في الساعات الأولى من الصباح، مما يدل على أن تناول السم حدث بعد الساعة الثامنة بوقت طويل.

- لقد اعتادت السيدة أنجلثروب أن تتناول قدحاً من الكاكاو في منتصف الليل، ألا يُحتمل أن يكون السم قد وُضع في الكاكاو؟

- لا، فقد أخذت عيّنة من وعاء الكاكاو وقمت بتحليلها فلم أرَ أثراً للإستركنين، وما كنت أتوقع أن تكون النتيجة غير ذلك لأن الإستركنين عقار شديد المرارة ويمكن تبيّنه إذا وُضع غرام منه في سبعين ألف غرام من السوائل، والكاكاو ليس من الكثافة بحيث يحجب طعمه ومذاقه مرارة الإستركنين.

- إذن أنت ترجّح أن السم قد وضع في القهوة، ولكن تأثيره تأخر لأسباب غير معلومة؟

- أجل، ولكن قدح القهوة تهشم تماماً فاستحال إخضاع محتوياته للتحليل.

وبذلك انتهت شهادة الدكتور باورشتاين. ثم جاء الدكتور ويلكنز فأيّد أقوال زميله، وعندما أثيرت فكرة الانتحار نفاها تماماً وقال إن المتوفاة كانت تعاني من ضعف القلب ولكنها فيما عدا ذلك كانت تتمتع بصحة جيدة كما أنها كانت مرحة ومتزنة العقل، فهي إذن آخِر من يفكر في الانتحار. ثم دُعي لورنس كافنديش لأداء الشهادة، ولم تختلف أقواله عن أقوال أخيه، ولكنه ما إن فرغ من شهادته حتى قال بعد تردد قصير: هل أستطيع الإدلاء برأي خاص؟

- طبعاً، طبعاً يا سيد كافنديش، فمهمتنا هي تقصي الحقائق والترحيب بكل ما يؤدي إليها.

- إنها فكرة خاصة طرأت لي وقد أكون مخطئاً، ولكن يُخيل إليّ أن وفاة أمي كانت طبيعية تماماً.

- كيف؟

- كانت أمي في الفترة الأخيرة تتناول عقاقير مقوية تحتوي على مادة الإستركنين.

- آه.

اتجهت أنظار المحلفين إلى لورنس ومضى هذا يقول:

لقد حدث في كثير من الحالات أن أدت خاصية الترسيب في العقاقير التي يتناولها المريض لمدة طويلة إلى الوفاة، ثم ألا يُحتمل أن تكون أمي قد تناولت جرعة كبيرة من الدواء بطريق الخطأ؟

- هذه أول مرة نسمع فيها أن المتوفاة كانت قبل موتها تتناول دواء يشتمل على الإستركنين. شكراً لك على هذه المعلومات يا سيد كافنديش.

ولكن الدكتور ويلكنز سخّف الفكرة وقال: إن ما قاله السيد كافنديش مستحيل. صحيح أن الإستركنين يترسب إلى حد ما، ولكنه لا يمكن أن يؤدي إلى الموت الفجائي على هذا النحو لأن الترسب ينتج أعراضاً مرضية تستمر فترة طويلة من الزمن، وكان لا بد لي أن ألاحظها بصفتي طبيب المتوفاة.

- والافتراض الثاني عن احتمال تناول المتوفاة جرعة كبيرة بطريق الخطأ؟

- ثلاث أو أربع جرعات لا يمكن أن تؤدي إلى الوفاة، وكان لا بد أن تتناول المتوفاة محتويات زجاجة كاملة لكي تترسب في أمعائها كمية من الإستركنين كتلك التي أسفر عنها التشريح.

- إذن هل يجب أن نستبعد الدواء كسبب لحدوث الوفاة؟

- بكل تأكيد.

سأله أحد المحلفين: ألا يمكن أن يكون الصيدلي قد

أخطأ في تحضير الدواء؟

فأجاب: ذلك ممكن طبعاً.

ولكن دوركاس التي أدلت بشهادتها بعد ذلك نفت هذا الاحتمال بصفة قاطعة، فقد قالت إن الدواء قد تم تحضيره منذ وقت طويل وإن السيدة أنجلثروب تناولت آخر جرعة من الزجاجة يوم وفاتها، وهكذا استبعد المحقق الدواء كسبب للوفاة. ثم قررت دوركاس أنها استيقظت على رنين جرس سيدتها فأيقظت الآخرين. ثم سُئلت عن المشاجرة التي سمعَت طرفاً منها فلم تختلف إجابتها عما سبق أن ذكرته لنا.

ثم دُعيت ماري كافنديش للإدلاء بأقوالها، فوقفت منتصبة القامة مرفوعة الرأس وتكلمَت بصوت خافت واضح النبرات، وأجابت على سؤال المحقق فقالت إنها استيقظت في الساعة الرابعة والنصف لتباشر عملها في حظيرة الأبقار كالعادة، ثم سمعت فجأة صوت سقوط شيء ثقيل، فقال المحقق: لا بد أنه كان سقوط المائدة الصغيرة المجاورة للفراش.

واستطردت ماري قائلة: ففتحت الباب وأصخت السمع، وبعد لحظة رن أحد الأجراس رنيناً عنيفاً فأقبلَت دوركاس مسرعة، وأيقظت زوجي وانطلقنا جميعاً إلى غرفة أنجلثروب فوجدنا بابها مغلقاً.

وهنا قاطعها المحقق قائلاً: لا تكلفي نفسك عناء سرد تلك التفصيلات فقد سبق أن سمعناها، وحبذا لو ذكرتِ لنا

ما سمعته من المشاجرة التي حدثت في اليوم السابق.

- أنا؟

كان في صوتها رنة تحدّ، ومدت يدها إلى ياقة ثوبها لتصلح من وضعها فأدركت على الفور أنها تريد كسب بعض الوقت.

قال المحقق: أجل، فقد علمت أنك كنت تجلسين على مقعد تحت نافذة غرفة النوم وبيدك كتاب تقرئينه، فهل هذا صحيح؟

كان هذا النبأ جديداً بالنسبة لي، فنظرت من مؤخرة عيني إلى بوارو ولاحظت من قسمات وجهه أن النبأ كان جديداً عليه أيضاً. وترددت ماري لحظة قصيرة ثم أجابت: نعم، هذا صحيح.

- وكانت نافذة غرفة النوم مفتوحة، أليس كذلك؟

ففزعت قليلاً ثم قالت: بلى.

- إذن لا بد أنك سمعت ما دار من حديث داخل غرفة النوم، وخاصة أن الأصوات كانت مرتفعة وغاضبة، والواقع أنها كانت أوضح بالنسبة إلى شخص يجلس في البهو.

- ربما.

- هل لك أن تذكري ما سمعته؟

- الواقع أنني لا أذكر أنني سمعت شيئاً.

- هل تعنين أنك لم تسمعي الأصوات؟

- بل سمعتها، ولكنني لم أتبين الكلمات، فليس من عادتي الإنصات إلى المحادثات الخاصة.

- ألا تذكرين شيئاً على الإطلاق يا سيدة كافنديش؟ ألا تذكرين كلمة شاردة أو عبارة مما تحملك على الاعتقاد بأنها محادثة خاصة؟

فصمتت قليلاً كأنها تفكر، ولكنها ظلت على هدوئها ثم قالت: بلى، أذكر أن السيدة أنجلثروب قالت شيئاً عن إثارة فضيحة بين زوج وزوجته.

- آه، هذا يتفق مع ما سمعته دوركاس. ولكن معذرة يا سيدة كافنديش، على الرغم من أنك أدركت أنها محادثة خاصة فأنت لم تحاولي الانتقال من مكانك وبقيت حيث كنت.

رمقته بنظرة صارمة، ولكنها رغم ذلك أجابت بهدوء تام قائلة: لم أنتقل من مكاني لأنني كنت أشعر بالارتياح فيه ولأن تفكيري كان مُركزاً على القراءة.

- هل هذا كل ما عندك؟

- نعم.

انتهت أسئلة المحقق، ولكنني كنت واثقاً من أنه لم يقتنع وأنه كان على يقين من أن ماري كافنديش تعرف أكثر مما قالت. ثم دُعيت آمي هيل، وهي من أصحاب الحوانيت في

القرية، فقررَت أنها بعد ظهر يوم ١٧ الجاري باعت وليم إيرل مساعد البستاني في قصر ستايلز نموذجاً مما يُستعمَل لتحرير الوصايا، ثم جاء إيرل ومانغ فأكدا أنهما وقعا كشاهدَين على إحدى الوثائق، وقال مانغ إن ذلك حدث في نحو الساعة الرابعة والنصف، في حين قال وليم ايرل أن التوقيع حدث قبل هذا الموعد.

ثم دعيت سنثيا فقالت إنها لم تكن تعرف شيئاً عن المأساة إلى أن أيقظتها السيدة كافنديش، فسألها المحقق: ألم تسمعي صوت سقوط المائدة؟

- لم أسمع أي شيء، فقد كنت مستغرقة في النوم.

فابتسم المحقق وقال: الأبرياء ينامون نوماً عميقاً. شكراً لك يا آنسة.

ثم جاءت إيفيلين هوارد فقدمَت الخطاب الذي أرسلَته إليها السيدة أنجلثروب في مساء ١٧ الجاري، وكنت وبوارو نعرف مضمونه، وفيما يلي نصه: «عزيزتي إيفيلين، ألا يمكن أن نتناسى خلافاتنا؟ لقد كان من العسير عليّ أن أغفر لك تحاملك على زوجي العزيز، ولكنني عجوز حمقاء، وأهم من ذلك أنني أحبك. المخلصة: إميلي أنجلثروب».

قال المحقق وهو يدفع بالخطاب إلى المحلفين: هذا الخطاب لا يفيدنا كثيراً إذ لم يرد به شيء عن أحداث ذلك اليوم.

فقالت إيفيلين: ولكنه واضح الدلالة على أن صديقتي

المسكينة قد اكتشفت أخيراً أنها خُدعت.

- الخطاب لا يتضمن شيئاً بهذا المعنى.

- ذلك لأن إميلي كانت مطبوعة على عدم الاعتراف بخطئها، أنا أعرفها جيداً. لقد كانت تريدني أن أعود دون أن تعترف بأنني كنت على حق، فكانت تلفّ وتدور مثل أكثر الناس. ولكنني لست من هذا الطراز.

فابتسم المحقق كما ابتسم بعض المحلفين. ويبدو أن إيفيلين كانت معروفة ومحبوبة، ثم استطردت: وعلى كل حال فأنا لا أرى إلا كلاماً ومزيداً من الكلام في حين أننا جميعاً نعرف أن...

وهنا قاطعها المحقق قائلاً بسرعة: شكراً لك يا آنسة هوارد. هذا كل ما هنالك.

وخُيل إليّ أنه تنفس بارتياح حين رآها تغادر مقعد الشهود. ثم حدثت المفاجأة الكبرى حين دُعي ألبرت ميس الصيدلي للإدلاء بأقواله. كان الشاب ممتقع الوجه بادي الاضطراب، وقد أجاب على أسئلة المحقق فقال إنه صيدلي مؤهل وإنه يباشر عمله في الصيدلية منذ وقت قصير بعد أن دُعي سابقه لأداء الخدمة العسكرية. فقال المحقق: سيد ميس، هل بعت مؤخراً كمية من الإستركنين لشخص ليس من حقه الحصول عليه؟

- نعم يا سيدي.

- متى كان ذلك؟

- في ليلة الإثنين الماضي.

- الإثنين أم الثلاثاء؟

- لا يا سيدي، الإثنين ١٦ الجاري.

- هل تستطيع أن تذكر لنا لمن بعتَ الإستركنين؟

ساد صمت رهيب، حتى لو أُلقي دبوس في تلك اللحظة لسُمع رنينه! ثم أجاب الصيدلي: نعم يا سيدي، لقد بعته للسيد أنجلثروب.

فتحولت الأنظار إلى ألفريد أنجلثروب الذي جلس كالتمثال لا يُبدي حراكاً.

- هل أنت واثق مما قلت؟

- كل الثقة يا سيدي.

- هل تعودتَ أن تبيع الإستركنين سراً؟

فتحرك الشاب التعس في مكانه بقلق وأجاب: لا يا سيدي، ولكنني كنت أعلم أن السيد أنجلثروب من أصحاب القصر، وخُيل إليّ أنه لا ضرر من أن أبيعه الإستركنين، فقد قال إنه يريده لتسميم كلب مسعور.

أخذتني الشفقة بالشاب التعس الذي كان كل ذنبه أنه أراد اكتساب زبائن جدد أغنياء تعودوا التعامل مع صيدليات لندن، وقال المحقق: أليس المألوف أن يوقع مشتري العقاقير السامة باسمه في سجل خاص؟

- بلى يا سيدي، وقد وقع السيد أنجلثروب باسمه.

- وهل أحضرتَ السجل؟

- نعم.

ثم قدم السجل، فتناوله المحقق وصرف الشاهد بعد أن عنّفه على المخالفة الخطيرة التي تورط فيها ببيعه عقاراً ساماً لمن لا يجوز له الحصول عليه. ثم دعي ألفريد أنجلثروب فتقدم للشهادة وسط صمت عميق، وتساءلت وأنا أنظر إليه: ترى هل يشعر بأنه قاب قوسين أو أدنى من المشنقة؟

وتكلم المحقق في الموضوع مباشرة فقال: هل ابتعتَ في مساء الإثنين الماضي كمية من الإستركنين لتسميم كلب مسعور؟

فأجاب أنجلثروب بهدوء تام: لا، ولا يوجد لدينا سوى كلب واحد لحراسة الأغنام، وهو يتمتع بصحة جيدة.

- هل تنكر أنك اشتريت من السيد ميس كمية من الإستركنين في مساء يوم الإثنين الماضي؟

- نعم.

- وهل تنكر هذا أيضاً؟

وأشار إلى توقيعه في السجل، فأجاب الشاهد: نعم؛ فالخط يختلف تماماً عن خطي. هو ذا توقيعي.

ثم أخرج من جيبه مظروفاً قديماً وقع عليه بإمضائه وقدمه

لهيئة المحلفين، وكان الاختلاف بين التوقيعين واضحاً، فسأله المحقق: إذن بماذا تفسر اعتراف السيد ميس؟

- لا بد أنه أخطأ.

فتردد المحقق لحظة ثم قال: سيد أنجلثروب، هل تستطيع أن تذكر لنا أين كنت في مساء يوم الإثنين ١٦ تموز (يوليو)؟

- الواقع أنني لا أذكر.

- هذا غير معقول، فكر جيداً يا سيد أنجلثروب.

هزّ أنجلثروب رأسه وأجاب: كل ما أذكره أنني خرجت للنزهة.

- في أيّ اتجاه سرت؟

- لا أذكر.

فقطب المحقق حاجبيه وسأل: هل كنتَ بصحبة أحد؟

- لا.

- هل قابلتَ أحداً في الطريق؟

-لا.

- هذا أمر يؤسف له. هل أفهم من ذلك أنكَ ترفض تحديد المكان الذي كنتَ فيه في الوقت الذي يؤكد السيد ميس

أنه رآك وأنت تدخل الصيدلية لشراء الإستركنين؟

- لكَ أن تفهم ما تريد.

- حذار يا سيد أنجلثروب.

وهنا تحرك بوارو في مقعده بقلق وتمتم قائلاً: تباً له! هل يريد هذا الغبي أن يُلقى القبض عليه؟

والواقع أن إجابات أنجلثروب لم تكن مقنعة على الإطلاق، وقد تركَت أثراً سيئاً في نفوس المحلفين، غير أن المحقق ما لبث أن انتقل إلى النقطة التالية فتنفس بوارو الصعداء. قال المحقق: هل دارت مناقشة حادّة بينك وبين زوجتك بعد ظهر يوم الثلاثاء؟

- لا، لم تَدُر بيني وبين زوجتي أية مناقشة ولم تحدث أية مشاجرة. القصة كلها لا أساس لها من الصحة لأنني كنت غائباً عن البيت طَوال فترة ما بعد الظهر.

- هل لديكَ من يؤيّد هذا الكلام؟

- حسبت أنني قلت ذلك.

- يوجد شاهدان على استعداد لأن يؤكدا أنهما سمعا الحوار بينك وبين زوجتك.

- هذان الشاهدان على خطأ.

دُهشت، فقد كان الرجل يتكلم بثقة واطمئنان! ونظرت إلى بوارو فرأيت على شفتيه ابتسامة سرور لم أفهم معناها.

ترى هل اقتنع أخيراً بجريمة أنجلثروب؟

قال المحقق: سيد أنجلثروب، لقد سمعتَ هنا آخِر الكلمات التي نطقَت بها زوجتك وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، هل بوسعك أن تجد لها تفسيراً؟

– طبعاً، التفسير بسيط للغاية؛ فقد كان النور في الغرفة ضعيفاً، ولما كان الدكتور باورشتاين يشبهني طولاً وقواماً وله لحية كلحيتي فقد ظنّت زوجتي المسكينة أنها تراني فهتفَت باسمي.

غمغم بوارو قائلاً: يا له من تعليل!

فسألته هامساً: هل هذا هو الحقيقة؟

– لم أقل إنه الحقيقة وإنما قلت إنه تعليل بارع.

واستطرد أنجلثروب قائلاً: أنت تنظر إلى كلمات زوجتي الأخيرة على أنها اتهام، ولكنها في الواقع كانت استغاثة، فقد كانت المسكينة تستغيث بي مما تعاني.

فكّر المحقق قليلاً ثم قال: من المعلوم أنك في ليلة المأساة قد صببتَ القهوة في قدح زوجتك ثم حملته إليها.

– لقد صببت القهوة في القدح حقاً ولكنني لم أحمله إليها، وقد كان في نيتي أن أفعل ذلك ولكن قيل لي إن صديقاً ينتظرني بالباب فوضعت القدح على مائدة في البهو وخرجت، وعندما عدت إلى البهو بعد بضع دقائق لم أجد القدح.

قد يكون هذا الكلام هو الحقيقة وقد لا يكون، ولكنه لا يؤثر على مركز أنجلثروب ولا يعفيه من الاتهام، فقد كان لديه الوقت الكافي في كلتا الحالتين لكي يضع السم في القهوة. وفي تلك اللحظة لفت بوارو نظري إلى رجلين يجلسان على مقربة من باب القاعة، أحدهما قصير القامة أسمر البشرة والثاني طويل أشقر. نظرت إلى بوارو متسائلاً فأدنى فمه من أذني وهمس قائلاً: هل تعرف من هو الرجل القصير القامة؟

هززت رأسي سلباً فقال: إنه جيمس جاب مفتش شرطة سكتلنديارد، وزميله من سكتلنديارد أيضاً. الأمور تسير بسرعة مذهلة أيها الصديق.

نظرت إلى الرجلين فلم أرَ في مظهرهما ما يدل على أنهما من رجال الشرطة أو حتى من الرسميين، وكنت لا أزال أرقبهما حين سمعت المحقق يصدر قراره بأن الوفاة جنائية والفاعل مجهول.

* * *

الفصل السابع
بوارو يسدّد دَيْنَه

ما إن غادرنا قاعة الجلسة حتى ضغط بوارو على ساعدي بلطف وانتحى بي جانباً، فأدركت أنه ينتظر رجلَي سكتلنديارد. وبعد لحظات خرج الرجلان، فتقدم بوارو من أقصرهما قامة وهو يقول: لعلكَ لا تذكرني أيها المفتش جاب؟

- آه، سيد بوارو؟

ثم التفت إلى زميله واستطرد قائلاً: هل سمعتَ أحاديثي عن السيد بوارو؟ لقد عملنا معاً في قضية أيركوب، ذلك المزور الخطير الذي قبضنا عليه في بروكسل، وهل تذكر البارون ألتارا؟ لقد راوغ شرطة أوروبا كلها، ولكننا قبضنا عليه في أنتويرب بفضل السيد بوارو.

قدمني بوارو إلى جاب، وقدمَنا هذا بدوره إلى زميله المفتش سمرهاي، فقال بوارو: أظن أنني لست بحاجة لأن أسألكما عما تفعلانه هنا.

- بالطبع، فالقضية واضحة كالشمس كما ترى.

- اسمح لي أن أخالفك في ذلك.

فقال سمرهاي: كيف، والرجل متورط إلى أذنيه؟ ومن العجب أن يكون مغفَّلاً إلى هذا الحد!

فقال جاب: مهلاً يا سمرهاي. لقد عملت مع السيد بوارو قبل الآن، وإذا كان هناك رجل أحترم رأيه فهذا الرجل هو بوارو، ويُخيل إليّ -إذا لم أكن مخطئاً- أنه يعرف عن هذه القضية أكثر مما نعرف.

فابتسم بوارو وقال: الواقع أنني عاصرت القضية منذ بدايتها، وقد توصلت إلى بعض النتائج.

فقال جاب: أما نحن فلا نعرف عنها أكثر مما سمعناه في جلسة التحقيق، وواضح مما سمعناه أن أنجلثروب قتل زوجته، وأنا أعجب لماذا لم يوجه إليه المحقق تهمة القتل ويأمر باعتقاله فوراً!

فقال بوارو: يُخيل إليّ أن في جيبك أمراً بالاعتقال.

فأجاب جاب وعلى شفتيه ابتسامة غامضة: ربما.

قال بوارو: يهمني أيها السادة ألا يُعتقَل أنجلثروب في الوقت الحاضر.

فقال سمرهاي ساخراً: حقاً؟

وقال جاب: ألا تستطيع الإشارة إلى الأسباب ولو

تلميحاً يا سيد بوارو؟ أنت تعلم أن سكتلنديارد يهمها كثيراً ألاّ تتورط في خطأ.

– هذا ما ظننته، فأنت إذا اعتقلته فسوف تجد نفسك في مأزق لأن التهمة ستسقط عنه فوراً.

فقال جاب وهو يجفف عرقه: أنا أصدقك يا سيد بوارو، ولكن هناك رؤساء سوف يسألونني لماذا لم أعتقله، فهلاّ أوضحتَ قليلاً؟

– حسناً، كنت أود أن أخفي أوراقي في الوقت الحاضر على الأقل، ولكنكَ على حق فيما قلت. هل ستذهبان فوراً إلى قصر ستايلز؟

– سنكون هناك بعد نصف ساعة، ولكن يجب أن نقابل المحقق والطبيب أولاً.

– حسناً، سأنتظركما في بيتي، وهو آخر بيت في القرية، ثم أذهب معكما إلى قصر ستايلز. وإذا رفض أنجلثروب الكلام (وهذا هو ما أرجّحه) فسوف أقدّم لكما من الأدلة ما يقنعكما بأن اتهامه لا يقوم على أساس. اتفقنا؟

– اتفقنا.

ثم انصرف الرجلان، وهتف بوارو قائلاً دون أن يترك لي فرصة للكلام: ما رأيك أيها الصديق؟ لقد مرّت لحظات رهيبة خلال التحقيق، ولم أكن أتصور أن ذلك الغبي سيرفض الكلام بهذا الإصرار.

– قد يكون هناك سبب آخر غير الغباء، هَبْ أنه مذنب، فهل هناك وسيلة يدافع بها عن نفسه غير الصمت؟

– هناك ألف وسيلة، وكل منها أفضل من الصمت والإنكار.

– ولكن إذا كنتَ واثقاً من براءته إلى هذا الحد، فبمَ تفسّر شراءه للإستركنين؟

– التفسير بسيط للغاية، إنه لم يشترِ الإستركنين.

– ولكن ميس قد تعرّف عليه.

– معذرة، فميس لم يتعرّف عليه. هو فقط رأى رجلاً ذا لحية كلحية أنجلثروب ويضع على عينيه نظارات كنظارات أنجلثروب ويرتدي ثياباً تلفت النظر كثياب أنجلثروب، ولكن لم يكن بوسعه أن يتعرّف على رجل رآه من بعيد مرة أو مرتين. ولا تنسَ أن ميس لم يحضر للعمل في صيدلية القرية إلا منذ أسبوعين وأن السيدة أنجلثروب كانت تتعامل أصلاً مع صيدليات تادمنستر ولندن.

– إذن هل تعتقد أن...

– هل تذكر يا صديقي النقطتين اللتين أكدت عليهما. دع الآن النقطة الأولى، فماذا كانت النقطة الثانية؟

– هي أن أنجلثروب يرتدي ملابس خاصة تلفت النظر وأن له لحية سوداء ويضع على عينيه نظارات.

– تماماً. والآن، هب أن شخصاً أراد أن يتنكر في شكل

جون أو لورنس كافنديش، فهل من السهل عليه أن يفعل ذلك؟

- لا، اللهمّ إلا إذا كان ممثلاً.

- سأقول لك لماذا ليس من السهل التنكر في شكلهما، ذلك لأنهما حليقا الوجه ومن يتنكر في شكلهما في وضح النهار ينبغي أن يكون ممثلاً موهوباً وأن تكون له ملامح كملامحهما، أما في حالة أنجلثروب فالأمر لا يتطلب سوى لحية سوداء وثياب كثيابه ونظارات تخفي عينيه. والآن، ماذا يهم المجرم قبل كل شيء؟ أن يبعد الشبهة عن نفسه، أليس كذلك؟ وما أفضل وسيلة لذلك؟ أفضل وسيلة هي أن يحوّل الشبهة إلى شخص آخر، وفي حالتنا هذه كان الشخص الآخر موجوداً. الجميع يرتابون في أنجلثروب وأصابع الاتهام كلها تشير إليه، ولتوكيد التهمة يجب أن يكون هناك دليل قاطع، وهل ثمة دليل أقطع من شراء السم؟

- ولكن إذا صح ذلك فلماذا لم يذكر أنجلثروب أين كان في الساعة السادسة من مساء يوم الإثنين؟

- أجل، لماذا؟ قد يتكلم إذا قُبض عليه، ولكنني لا أريد أن يصل الأمر إلى هذا الحد وسأحاول أن أقنعه بخطورة موقفه. إن وراء صمته أسباباً مريبة، فهو ربما لم يقتل زوجته ولكن من المحقق أنه وغد.

كنا قد وصلنا إلى بيت بوارو فأكمل الحديث قائلاً: لننسَ أنجلثروب الآن. ما رأيك فيما حدث في جلسة التحقيق؟

انصرف ذهني على الفور إلى ماري كافنديش ولكنني تعمدت المراوغة وأجبت: ماذا تعني؟

- أعني شهادة لورنس كافنديش مثلاً، أليس مما يبعث على الدهشة قوله إن الوفاة حدثت بالقضاء والقدر نتيجة للدواء الذي كانت أمه تتعاطاه؟

- نعم، ليس في ذلك شيء إطلاقاً، فقد عبّر عن رأيه كشخص عادي.

- ولكن لورنس ليس شخصاً عادياً. ألم تقل لي إنه درس الطب وتخرج طبيباً؟

- الواقع أنني نسيت ذلك.

- لقد كان سلوكه غريباً منذ البداية، فقد كان هو الوحيد، دون سكان القصر جميعاً، الذي كان في استطاعته معرفة أعراض التسمم بالإستركنين، ولكنه -رغم ذلك- كان أشد المتحمسين لنظرية الوفاة الطبيعية. أليست هذه ظاهرة تستحق التفكير أيها الصديق؟

- الأمر محير حقاً.

- ثم هناك السيدة ماري كافنديش، فهي لم تقل كل ما تعرفه. ما رأيك في موقفها؟

- أنا لم أفهمه، وليس من المعقول أنها تريد التستر على أنجلثروب، ولكن موقفها يوحي بأنها تتستر عليه.

- أجل، هذا موقف غريب حقاً. ولكن يوجد شيء

واحد مؤكد، وهو أنها سمعت من تلك المحادثة الخاصة أكثر مما أدلت به، ولكن شهادتها أثبتت أنني أخطأت وأن دوركاس كانت على صواب حين أكدت أن المشاجرة حدثت نحو الساعة الرابعة مساء.

فنظرت إليه بدهشة لأنني لم أفهم قط معنى اهتمامه بهذه النقطة.

- أجل، لقد ظهرَت أشياء كثيرة عجيبة خلال التحقيق. إليك الدكتور باورشتاين مثلاً، ماذا كان يفعل في تلك الساعة المبكرة من الصباح؟

كان من العجيب أن أحداً لم ينتبه إلى هذه الحقيقة، فقلت: لعله أصيب بأرق.

- هذا تفسير وجيه جداً أو رديء جداً لأنه يبرر كل شيء ولا يوضح شيئاً، ولعل من الأفضل أن نضع هذا الطبيب البارع تحت رقابتنا.

- هل لديك ملاحظات أخرى على التحقيق؟

- إذا وجدتَ أحداً لا يقول الصدق فاحذره. أما انطباعي عن التحقيق فهو أن واحداً أو اثنين فقط قد تكلما بصراحة وصدق.

- لا شك أن لورنس وماري كافنديش ليسا من هؤلاء، أما جون والآنسة هوارد فأعتقد أنهما قالا الصدق.

- أتعتقد ذلك حقاً؟

- لقد كانت الآنسة هوارد صادقة وصريحة دائماً.

رمقني بوارو بنظرة غريبة وهمّ بأن يقول شيئاً ثم أمسك، فقلت له: وهناك سنثيا، إنها مثال للبراءة والوضوح.

- هذا صحيح، ولكن الغريب أنها لم تسمع شيئاً رغم أنها تقيم في الغرفة المجاورة للسيدة أنجلثروب، في حين أن ماري كافنديش التي تقيم في الجناح الآخر قد سمعَت صوت سقوط المائدة بوضوح تام.

- سنثيا في ميعة الشباب وتنام نوماً عميقاً.

في تلك اللحظة طُرق الباب الخارجي، فاختطف بوارو قبعته وفتل شاربه وهبط الدرَج مسرعاً، فتبعته، وكان رجلا سكتلنديارد في انتظارنا فانطلقنا جميعاً في الطريق إلى قصر ستايلز.

كان قدوم رجلَي الشرطة صدمة لأهل القصر، ولكنها صدمة فتحَت أعينهم على خطورة الموقف. ودار حديث هامس بين بوارو وجاب، فطلب هذا الأخير على أثره من أهل القصر -فيما عدا الخدم- الاجتماع في قاعة الاستقبال.

وأعتقد أن الجميع دُهشوا حين وقف بوارو، وليس أحد الشرطيَين، واستهل الحديث، فقال بعد أن حنى قامته تحية للحاضرين كما يفعل المحاضر حين يهم بإلقاء محاضرته: سيداتي سادتي، لقد طلبت حضوركم جميعاً إلى هذا المكان لأمر معين يتصل بالسيد أنجلثروب.

وكان أنجلثروب قد جلس بمعزل عن الآخرين فرفع رأسه ونظر إلى بوارو، فقال هذا الأخير: هناك ظل قاتم يخيم على هذا البيت، هو ظل جريمة القتل التي ذهبَت ضحيتها السيدة أنجلثروب.

هزّ أنجلثروب رأسه وتمتم قائلاً: مسكينة إميلي.

فقال بوارو يحدثه: أنت أيضاً مسكين يا سيد أنجلثروب لأن موقفك دقيق للغاية.

- ماذا تعني؟

أعني أنك مُتهم بتسميم زوجتك.

- يا إلهي! أنا أسمم إميلي؟

- أنت لم تدرك أن موقفك في التحقيق كان مدمراً لك، والآن أنت تعرف خطورة الاتهام الموجَّه إليك، فهل ما زلت مصراً على الامتناع عن تحديد المكان الذي كنتَ فيه في الساعة السادسة من مساء يوم الإثنين؟

تأوّه أنجلثروب ودفن وجهه بين كفيه، ثم اقترب منه بوارو مهدداً: تكلم.

فرفع أنجلثروب يديه عن وجهه ببطء وهز رأسه، فصاح بوارو: أترفض الكلام؟

- لا أظن أن هناك إنساناً من الوحشية بحيث يتهمني بمثل ما ذكرت.

فقال بوارو بحزم: حسناً، سأتكلم نيابة عنك.

- كيف؟ أنت لا تعرف شيئاً.

فتحول بوارو إلينا وقال: سيداتي وسادتي، اسمحوا لي بأن أؤكد لكم أن الشخص الذي ذهب إلى الصيدلية وابتاع الإستركنين في الساعة السادسة من مساء يوم الإثنين لم يكن السيد أنجلثروب، لأن السيد أنجلثروب كان في الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم يرافق السيدة ريكس إلى بيتها في المزرعة المجاورة، وفي استطاعتي أن أقدم خمسة شهود على الأقل على استعداد لأن يقسموا على أنهم رأوهما معاً في الساعة السادسة وما بعدها على طول الطريق المؤدي إلى المزرعة والذي يبلغ زهاء ثلاثة كيلومترات.

* * *

الفصل الثامن
الشكوك

ساد صمت مَشوب بالذهول، وكان المفتش جاب أقل الجميع دهشة فقطع حبل الصمت بقوله: هل أنت مطمئن إلى أولئك الشهود يا بوارو؟

- إليك قائمة بأسمائهم وعناوينهم، ولك أن تستجوبهم بنفسك، ولكنني أؤكد أنهم شهود شرفاء.

- أنا واثق من ذلك، ويجب أن أشكرك لأنك جنّبتنا الوقوع في ورطة.

ثم التفت إلى أنجلثروب وقال: معذرة يا سيدي، ولكن لماذا لم تقُل ذلك في التحقيق؟

فقال بوارو: سأقول لك إذن. لقد كانت هناك شائعة بأن...

فصاح أنجلثروب قائلاً بصوت متهدج: هذه شائعة خبيثة ليس لها أيّ أساس.

فقال بوارو: لم يشأ السيد أنجلثروب إثارة أية فضيحة في هذا الوقت بالذات، في حين جثة زوجته لم تُوارَ التراب بعد.

فقال جاب محدثاً أنجلثروب: لو أنني مكانك يا سيدي لآثرت الفضيحة على الاعتقال، ولو استطاعت زوجتك المسكينة الكلام لقالت ذلك أيضاً. لقد كان اعتقالك أمراً مؤكداً لولا تدخل السيد بوارو.

فغمغم أنجلثروب قائلاً: أنت لا تعلم يا سيدي المفتش، كيف كنت هدفاً للتشهير والاضطهاد.

ثم نظر من مؤخرة عينه إلى إيفيلين هوارد، فقال جاب: والآن يا سيدي، أريد أن ألقي نظرة على غرفة زوجتك ثم أتحدث قليلاً مع الخدم. لا تشغل نفسك بي يا سيد أنجلثروب، سيرشدني السيد بوارو إلى الطريق.

ثم غادر المفتشان الغرفة وأشار بوارو أن أتبعه، وما إن توسطنا الدرَج حتى انتحى بي جانباً وقال هامساً: أسرع إلى الجناح الأيمن وقف في الدهليز بجوار الباب الزجاجي الذي يتوسطه ولا تتحرك من مكانك حتى ألحق بك.

ثم تركني ومضى مع الشرطيَّين. وأطعت تعليماته فوقفت بجوار الباب الزجاجي وأنا أتساءل عن هدفه، ثم خطر لي خاطر؛ لقد كانت جميع الغرف -باستثناء غرفة سنثيا- تقع في الجانب الأيمن، فهل لذلك صلة بما يهدف إليه بوارو؟ وهل أرادني بوارو أن أرصد حركات الرائحين والغادين؟ ومهما

يكن من أمر فقد لزمت مكاني. ومرت الدقائق ولم أرَ أحداً ولم يحدث شيء، وبعد نحو عشرين دقيقة لحق بي بوارو وسألني: هل تركت مكانك؟

- لا، ولم يحدث شيء.

- آه، ولكن لعلك سمعت شيئاً، أليس كذلك؟

- أنا لم أسمع شيء.

- أيمكن هذا؟ آه، كم أنا حانق على نفسي! لقد كنت حريصاً دائماً، ولكنني لا أدري ماذا دهاني! لقد أفلتَت من يدي اليسرى حركة فسقطَت المائدة المجاورة للفراش.

وبدا الضيق على وجهه فقلت: وما أهمية ذلك؟ لا شك أنك كنتَ منفعلاً بعد النصر الذي سجلته بتبرئة أنجلثروب. وبالمناسبة، لا بدّ أن الصلة بين أنجلثروب والسيدة ريكس أوثق مما ظننّا، وإلا ما أصر على الصمت على هذا النحو. ماذا ستفعل الآن؟ وأين ذهب الشرطيان؟

- انطلقا لاستجواب الخدم، ولكن جاب خيّب رأيي فيه فهو يعمل بلا تخطيط.

كنت أطل من النافذة، ولم ألبث أن هتفت: هذا هو الدكتور باورشتاين. إنني أمقته بالغريزة.

- إنه رجل ماهر.

- كم سررتُ حين رأيته ملطَّخاً بالوحل.

ثم رويت لبوارو قصة سقوطه في المستنقع وكيف كان منظره حين جاء إلى القصر في مساء الثلاثاء وهو أشبه بتمثال من طين، فأمسك بوارو بكتفي وصاح وهو يهزني بعنف: تقول إنه جاء إلى هنا في مساء الثلاثاء؟ لماذا لم تذكر لي ذلك من قبل؟ لماذا؟ لماذا؟

- لم أتصور أن لقدومه أية أهمية؟

- بل له كل الأهمية. هل نسيت أنه جاء مرة أخرى عقب اكتشاف الحادث؟ هذا سيغير كل شيء.

ثم أرخى قبضته على كتفي وراح يذرع أرض المكان ويتمتم: أجل، هذا سيغير كل شيء.

وفجأة توقف عن السير وصاح: يجب أن نعمل فوراً. أين السيد كافنديش؟

كان جون في قاعة التدخين، فذهب إليه بوارو وابتدره بقوله: لديّ عمل هام في تادمنستر يا سيد كافنديش، فهل تعيرني سيارتك؟

- طبعاً، هل تريدها الآن؟

- نعم، إذا تفضلت.

بعد دقائق كانت السيارة تنهب بنا الأرض في الطريق إلى تادمنستر، وقال بوارو: يجب أن تُعمل فكرك يا صديقي. أنت تعلم أن استبعاد أنجلثروب قد غير الموقف، والآن نحن نواجه مشكلة جديدة تماماً، ونعلم الآن أن هناك شخصاً واحداً

لم يَشترِ السم، ولكن ماذا عن الآخرين؟ أيّ واحد من أهل القصر، باستثناء ماري كافنديش التي كانت تلعب التنس معك في ذلك الوقت، يحتمل أن يكون تنكر في زي أنجلثروب وابتاع السم؟ ثم إن هناك ما قرره أنجلثروب في التحقيق من أنه ترك قدح القهوة في البهو، وهذا أمر له مغزاه، لذلك يجب علينا أن نعرف مَن مرّ بالبهو في أثناء وجود القدح هناك ومن حمل القدح إلى السيدة أنجلثروب. لقد فهمت من روايتك أن هناك شخصين فقط نستطيع الجزم بأنهما لم يقتربا من القدح، وهذان الشخصان هما ماري كافنديش والآنسة سنثيا.

- هذا صحيح.

- لقد اضطُررت، لكي أبرئ أنجلثروب، إلى الكشف عن أوراقي قبل الموعد المناسب، وقد كان القاتل مطمئناً إلى أن هناك متهماً آخر يحظى باهتمامنا، أما الآن فسيضاعف حذره ويعمل بحرص شديد. ولكن حدثني عن رأيك الشخصي يا هيستنغز، هل تتهم أحداً بعينه؟

فترددت، والواقع أنه كانت هناك فكرة عبرت بذهني مراراً في ذلك الصباح ولكنني استبعدتها لغرابتها ولأنني لم أجد ما يؤيدها، فقلت له: لدي شك، ولكنه لا يرقى إلى مرتبة الاتهام. أنا أشك في إيفيلين هوارد وأعتقد أنها لم تقل كل ما تعلم.

- إيفيلين هوارد؟

- نعم، لا تسخر منّي.

- ولماذا أسخر منك؟

- أنا أعتقد أننا أسقطناها من عداد المشتبه فيهم لمجرد أنها لم تكن في ستايلز وقت وقوع الجريمة، في حين أن المدينة التي تعمل بها تقع على مسافة خمسة عشر ميلاً فقط ويمكن للسيارة أن تقطعها في أقل من نصف ساعة، فهل بوسعنا أن نقطع بأنها كانت بعيدة من ستايلز في ليلة الجريمة؟

- نعم يا صديقي، فقد كان من أول أعمالي حين اضطلعت بهذه القضية أنني اتصلت بالمستشفى الذي تعمل به وتحققت من أنها قضت نهار الثلاثاء وشطراً كبيراً من الليل في العمل به.

- الواقع أن نقمتها العجيبة على أنجلثروب هي ما حملني على الارتياب بها، فهي على استعداد لأن تفعل أيّ شيء للنكاية به، ولا يبعد أن تكون هي التي أحرقت الوصية الجديدة ظناً منها أنها الوصية التي كتبتها السيدة أنجلثروب لصالحه.

- هل ترى أن نقمتها عليه غير طبيعية؟

- أراها عنيفة حتى إنني أكاد أشك في سلامة عقلها.

- أنت على حق في أمر واحد، هو أننا يجب أن نرتاب في كل إنسان حتى تثبت لنا براءته. لكن ما هي الأسباب التي تمنع الآنسة هوارد من تسميم السيدة أنجلثروب؟

- لقد كانت تتفانى في الإخلاص لها.

- أراك تجادل بمنطق الأطفال، فإذا كان في استطاعة الآنسة هوارد أن تقتل السيدة أنجلثروب فهي تستطيع كذلك أن تتظاهر بالإخلاص والولاء لها. لا، لا يا صديقي؛ يجب أن تبحث عن سبب آخر، والواقع أن هناك سبباً جوهرياً.

- ما هو؟

- هو أن موت السيدة أنجلثروب لا يفيد الآنسة هوارد بأيّ حال.

- ألا يُحتمل أن تكون السيدة أنجلثروب قد كتبت وصية لصالحها؟

هزّ بوارو رأسه علامة النفي، فقلت: ولكنك ألمحت إلى ذلك ذات مرة.

- لقد فعلت ذلك لسبب، فقد كنت أعني وقتئذ شخصاً لم أشأ ذكر اسمه، وكان مركز ذلك الشخص يماثل مركز الآنسة هوارد تماماً.

- وماذا عن تلك الوصية الجديدة التي كتبتها السيدة أنجلثروب في يوم وفاتها؟

- لديّ فكرة خاصة عن هذه الوصية، ولكنني أستطيع أن أؤكد لك أنها لم تكن لصالح الآنسة هوارد.

كنا قد وصلنا إلى تادمنستر، فأوقف بوارو السيارة أمام معمل للتحاليل، ثم غاب داخل المعمل بضع دقائق وقال عندما عاد: لقد انتهيت من مهمتي.

- ماذا فعلت؟

- تركت شيئاً للتحليل.

- ماذا تركت؟

- قطرة من الكاكاو من إناء كان في غرفة نوم القتيلة.

- ولكن الدكتور باورشتاين قام فعلاً بتحليل الكاكاو، ثم إنك أنت نفسك قد سخرت من فكرة وجود الإستركنين في الكاكاو.

- أعلم كل ذلك، ولكنني أريد تحليله مرة أخرى.

وعبثاً حاولت استدراجه إلى مزيد من الإيضاح.

* * *

في اليوم التالي شُيِّعت جنازة السيدة أنجلثروب، وفي اليوم الذي يليه كنت في طريقي إلى قاعة الطعام لتناول الإفطار حين انتحى بي جون جانباً وقال لي إن ألفريد أنجلثروب قرر مغادرة القصر في ذلك اليوم وإنه سيقيم في فندق القرية ريثما يضع خطة للمستقبل، ثم استطرد قائلاً: لقد اغتبطنا لرحيله، ولكننا نشعر بوخز الضمير لأننا أسأنا معاملته. صحيح أنه كان لنا كل العذر لأن أصابع الاتهام كانت كلها تشير إليه ولكن ذلك لا ينفي أننا كنا على خطأ ويجب أن نكفّر عن خطئنا الآن، وذلك ما لا سبيل إليه لأننا لا نحبه ولم نحبه قط، وقد كان من الكياسة بحيث قرر من تلقاء نفسه أن يرحل. ومن حسن الحظ أن هذا القصر لم يكن ملكاً لأمي كي توصي به إليه،

وما كنت أطيق أن أرى هذا الرجل متربعاً فيه.

فسألته: هل سيكون في استطاعتك الحفاظ عليه والقيام بنفقاته؟

- نعم، نعم، هناك ضريبة الميراث بطبيعة الحال، ولكنني سأرث نصف ثروة أمي، وسيقيم لورنس معنا وسيرث النصف الآخر. سنعاني بعض الضيق في البداية لأنني مثقل بالديون كما قلت لك، ولكنني أعتقد أن الدائنين سيوافقون على الانتظار الآن.

كانت جلستنا حول مائدة الفطور في ذلك الصباح من أبهج الجلسات منذ يوم المأساة، فقد كانت البسمات تعلو وجوه الجميع فيما عدا لورنس الذي ظل على وجومه وكآبته، ولكن الجو بصفة عامة كان جو مرح وتطلع إلى مستقبل جديد مليء بالأمل والسعادة.

وكانت الحرب قد هدأت مؤقتاً فنشطَت الصحف لتغطية الأنباء المحلية وامتلأت أعمدتها بتفصيلات المأساة وصور أفراد الأسرة حتى أصبح حادث ستايلز الغامض على كل لسان، وظل الصحفيون وقتاً طويلاً يحاصرون القصر ويتعقبون أفراد الأسرة ويتسقطون الأنباء من الخدم وأهل القرية، كما استباح المفتش جاب وزميله القصر فهما يدخلان ويخرجان ويفتشان ويسألان ولكن بلا نتيجة، حتى أصبح مرجَّحاً أن تُحفَظ القضية وتُقيَّد الجريمة ضد مجهول.

* * *

ذات يوم سألتني دوركاس هامسة: هل ستقابل صديقك البلجيكي اليوم يا سيدي؟

- نعم، ولكن لماذا؟

- لعلك تذكر أنه ألحّ مرة بالسؤال عن ثوب أخضر.

- أجل، هل وجدتِه؟

- لا، ولكنني تذكرت أن في غرفة في السطح صندوقاً يحتوي على ملابس كثيرة كانوا يستخدمونها في الحفلات التنكرية، وقد يجد صديقك في هذا الصندوق ضالته.

- شكراً يا دوركاس. أعدك بأن أخبره.

ثم قصدت إلى القرية لأخبر بوارو، ولكنني قابلته في الطريق فنقلت إليه رسالة دوركاس، فرجعنا إلى القصر وتسللنا إلى الغرفة التي ذكرَتها دوركاس فوجدنا الصندوق فعلاً، وشرع بوارو في إخراج محتوياته وإلقائها على أرض الغرفة، وكانت كلها ثياباً قديمة للرجال والنساء بعضها من قطع من قماش أخضر، ولكن بوارو هز رأسه ولم يُعرها اهتماماً. وقد لاحظت أنه يعمل بفتور كمَن لا يتوقع أن يسفر بحثه عن نتيجة، ولكن ما لبث أن هتف فجأة: انظر.

ثم أخرج من قاع الصندوق لحية سوداء فحصها باهتمام بالغ وقال: إنها جديدة.

وبعد تردد قصير أعادها إلى الصندوق، ثم وضع الملابس فوقها كما كانت قبلاً وهبطنا إلى الطابق الأرضي،

وهناك قال: يجب أن أتحدث إلى دوركاس فانتظرني.

وانقضَت بضع دقائق قبل أن يلحق بي، وبعد أن جاء قال: إنها لا تعرف شيئاً عن اللحية السوداء.

- هل تعتقد أنها اللحية التي استخدمها الشخص الذي اشترى الإستركنين؟

- نعم، ألم تلاحظ أنها قُصّت حديثاً كي تشبه لحية أنجلثروب؟ القضية أعقد مما كنا نتصور يا هيستنغز.

- ولكن مَن الذي وضعها في الصندوق؟

- لقد وضعها شخص ذكي في المكان الوحيد الذي لا يراها فيه أحد. نعم، إنه ذكي، ولكن يجب أن نكون أذكى منه، وذلك بألاّ ندعه يشعر بأننا على أيّ قدر من الذكاء. آه، ها هي السيدة كافنديش الفاتنة.

رفع قبعته تحية لماري كافنديش ثم استطرد قائلاً: معذرة يا سيدتي، هل تسمحين لي بأن ألقي عليك سؤالاً؟

- عليّ؟ طبعاً.

- أريد أن أسألك عن الباب الموصل بين غرفة الآنسة سنثيا وغرفة السيدة أنجلثروب. هل قلت إن هذا الباب كان موصَداً بالمزلاج؟

- نعم، قلت ذلك في التحقيق.

- هل أنت واثقة من أنه كان موصَداً بالمزلاج وليس

مُقفلاً بالقفل فحسب؟

- آه، فهمت ما تعني. الحق أنني لا أدري، فقد كان الباب مغلقاً ولم أستطع فتحه، ذلك ما أردت أن أقوله، ولكنني أعتقد أن كل الأبواب وُجدت موصَدة من الداخل.

- ولكن أنت شخصياً، ألم تلاحظي ما إذا كان الباب موصَداً بالمزلاج أم لا عندما دخلت؟

- أعتقد أنه كان موصَداً.

- هل رأيته؟

- لا؛ فأنا لم أنظر إليه.

وكان لورنس قد غادر قاعة التدخين منذ لحظة فسمع الشطر الأخير من الحديث فقال بحدة: أنا نظرت إليه، وكان موصَداً بالمزلاج.

فقال بوارو بشيء من خيبة الأمل: آه، هذا يحسم الأمر. شكراً لك يا سيدتي العزيزة. شكراً لك يا سيد لورنس.

ثم طلب منّي أن أرافقه إلى البيت. وساد الصمت بيننا وقتاً طويلاً إلى أن قال فجأة: أنا لم أرَ الآنسة سنثيا، فأين هي؟

- في المستشفى، فقد استأنفَت عملها اليوم.

- إنها فتاة طيبة نشيطة، ترى هل توافق على أن أزور صيدليتها؟

- أنا واثق من أنها سترحب بك.

- هل تذهب إلى الصيدلية كل يوم؟

- كل يوم عدا أيام الأربعاء.

- أظن أن لديها كل أنواع السموم.

- لقد أرتني ما عندها من العقاقير السامة، وكلها في خزانة واحدة مغلقة.

- هل الخزانة قريبة من النافذة؟

- لا، بل هي في الداخل. لماذا؟

فهز كتفيه وأجاب: مجرد سؤال، هلاّ دخلت؟

كنا قد وصلنا إلى البيت فأجبته: لا، أظن أنه يحسُن بي أن أذهب. سأقوم بجولة في الغابة قبل أن أعود إلى القصر.

كانت الغابة حول قصر ستايلز من أجمل الغابات، وقد أمتعني السير فوق أعشابها الرطبة بعد المسيرة الطويلة تحت الشمس المحرقة، ولم تكن هناك نسمة هواء ولا زقزقة عصفور فاستلقيت فوق الأعشاب، ونسيت الجريمة وبوارو وتثاءبت وغلبني النعاس، ثم نمت فرأيت فيما يرى النائم أن لورنس أهوى بمضرب التنس على رأس أنجلثروب فقتله، وأن جون غضب لذلك غضباً شديداً وصاح به: لا، أنا لا أسمح بهذا.

وهنا استيقظت، ولست أدري كم انقضى من الوقت منذ أغمضت عيني حتى فتحتهما، ولكنني أحسست على الفور بأنني في موقف شديد الحرج، فقد كان جون وماري كافنديش

يقفان وجهاً لوجه على بعد خطوات مني وهما يتشاجران، وكان من الواضح أنهما لا يعلمان بوجودي على مقربة منهما، وقبل أن أتحرك أو أنطق بكلمة ردّد جون نفس الكلمات التي أيقظتني من نومي، فقد قال: لا، أنا لا أسمح بهذا.

فأجابت ماري بصوت بارد قاطع كالفولاذ: وهل من حقك أن تنتقد سلوكي؟

- سوف يكون اسمك مضغة في أفواه أهل القرية؛ كيف تتسكعين مع ذلك الرجل ولم يمضِ يومان على دفن أمي؟

- ألا يهمّك سوى ثرثرة الناس في القرية؟

- لقد ضقت ذرعاً بذلك الرجل وبطوافه حولك.

- إنه ليس أسوأ منك على أية حال.

- ماري!

كان في صوته لوم واستعطاف، ولكنها أجابت بنفس الصلابة والبرود: ماذا تريد؟

- هل أفهم أنك مصممة على الاستمرار في مقابلة باورشتاين بالرغم من اعتراضي؟

- سأقابله متى شئت.

- أتتحدينني؟

- لا، ولكنني لا أعترف بحقك في نقد سلوكي. أليست لك صداقات لا أقرّها؟

فتراجع خطوة إلى الوراء وصاح بصوت متهدج وقد غاض الدم من وجهه: ماذا تعنين؟

- أنت تعرف جيداً ماذا أعني، وتعلم أنه ليس من حقك أن تعترض على اختياري لأصدقائي.

فقال وهو ينظر إليها متوسلاً: ليس من حقي؟ أليس لي الحق يا ماري؟

فتراخت عضلات وجهها وخُيل إليّ أنها ستبكي، ولكنها عادت فتصلبت بغتة وأجابت وشرر الغضب يتطاير من عينيها: نعم، لا حق لك.

ثم ابتعدَت بخطى متزنة، ولكنه وثب في أثرها فأمسك بساعدها وقال بصوت هادئ: ماري، أتحبين هذا الرجل؟

فترددت قليلاً ثم سحبَت ساعدها من قبضة يده في هدوء وقالت وعلى شفتيها ابتسامة غامضة: ربما.

ثم ابتعدت مسرعة وتركته جامداً وكأنه تمثال.

* * *

عندما عدت إلى القصر وجدت القوم حول مائدة الشاي تحت شجرة الجميز. وكانت سنثيا قد عادت من المستشفى فجلست على مقعد بجوارها وحدثتها عن رغبة بوارو في زيارة الصيدلية، فرحبَت به وقالت: إنه رجل لطيف دائماً وغريب الأطوار أحياناً. يجب أن أتفق معه على موعد الزيارة، وحبّذا لو جاء في وقت تناول الشاي.

وصمتت قليلاً، ثم نظرت من ركن عينيها نحو ماري وقالت تحدثني بصوت خافت: سيد هيستنغز.

- نعم.

- أريد أن أتحدث معك على انفراد بعد الشاي.

فأدركت من نظرها إلى ماري كافنديش أن العلاقة بينهما ليست كلها مودة وصفاء، وكان جون قد دخل البيت لأمر ما ثم عاد وهو مكفهرّ الوجه مقطب الجبين وقال: ماذا يريد هذان الشرطيان؟ لقد فتشا كل غرفة وقلبا كل شيء رأساً على عقب.

فقال لورنس: إنهما يُبديان نشاطاً ويتظاهران بأنهما يفعلان شيئاً لكي تشيد الصحف بما يبذلانه من جهد.

وبعد الشاي دعوت سنثيا للنزهة في الغابة، وما إن ابتعدنا وحجبتنا الأشجار عن الأعين حتى قلت لأحثها على الكلام: حسناً يا سنثيا؟

فجلسَت على العشب وخلعَت قبعتها فصبغت أشعة الشمس شعرها بلون الذهب، ولاحظت -ربما لأول مرة- أنها أجمل كثيراً من ماري كافنديش، ثم قالت: لقد أردت أن أستشيرك فيما ينبغي أن أفعله. نعم، فلطالما قالت لي العمة إميلي إنها سوف تذكرني في وصيتها، ولكن يبدو أنها نسيت أو أنها لم تتوقع الموت، فكانت النتيجة أنني أجد نفسي عالة على أصحاب القصر الآن، ولا أعلم ما ينبغي أن أفعل، فهل ترى أن أرحل فوراً؟

- بالطبع لا، أنا واثق من أن أحداً لا يريد رحيلك.

فترددَت قليلاً ثم قالت: السيدة كافنديش تريد رحيلي، إنها تكرهني.

- تكرهك؟!

- نعم ، لا تطيقني، وهو كذلك.

- على العكس يا سنثيا، فأنا أعلم أن جون يحبك.

- لا أعني جون، وإنما أعني لورنس. أنا لا أعبأ بكراهية لورنس أو حبه، ولكن الإنسان لا يسعه إلا الإحساس بالحرج حين يجد أنه غير محبوب.

- ولكنهم يحبونك يا سنثيا، أنا واثق من ذلك، فجون يحبك وكذلك إيفيلين و...

- أجل، أعلم أن جون يحبني وإيفيلين لا تؤذي ذبابة رغم خشونتها، ولكن لورنس لا يتحدث إليّ إلا كارهاً، وماري لا تعيرني أي اهتمام. إنها تتوسل إلى إيفيلين كي تبقى لكنها لا تريدني، ولست أدري ماذا أفعل.

ثم انفجرت باكية، فغمرني شعور بالإشفاق عليها والرثاء لها. وفجأة قلت لها: أتتزوجينني يا سنثيا؟

ويبدو أنني قد وُفِّقت للعلاج الناجح لدموعها، فقد اعتدلت جالسة على الفور وهتفت قائلة: لا تكن أبله.

- أنا لست أبله، أنا أطلب منك أن تشرّفيني بأن تكوني

زوجتي.

وكم أدهشني حين انفجرت ضاحكة وقالت: هذا جميل منك. ولكنك تعلم جيداً أنك لا تريد الزواج بي.

- بل أريد، أنا أملك...

فقاطعتني قائلة: دعنا مما تملك. لا أنت تريد هذا الزواج حقاً ولا أنا أريده، ولكنني أرجو لك التوفيق مع امرأة أخرى. إلى اللقاء، لقد سرّيت عني.

ثم اختطفت قبعتها وتوارت بين الأشجار! وهكذا لم يكن لقاؤنا موفقاً على الإطلاق. وفجأة خطر لي أن أذهب إلى القرية لأتسمّع أنباء الدكتور باورشتاين. ألم يقل بوارو إننا يجب أن نضعه تحت رقابتنا؟

طرقت باب الشقة التي كنت أعلم أنه يقيم فيها، وفتحت البابَ سيدة عجوز فقلت لها: طاب يومك. هل أستطيع مقابلة الدكتور باورشتاين؟

فحملقت إلى وجهي وقالت: ألا تعلم؟

- أعلم ماذا؟

- لقد قبضَت الشرطة عليه.

فلم أنتظر المزيد، وانطلقت أعدو في الطريق إلى بيت بوارو.

* * *

الفصل التاسع
اعتقال

كم ضايقني عدم وجود بوارو في بيته، فقال لي زميله المواطن البلجيكي الذي فتح الباب إنه يعتقد أنه ذهب إلى لندن. ترى لماذا اتخذ هذا القرار الفجائي؟ ولماذا ذهب إلى لندن؟ ثم رجعت إلى قصر ستايلز، وفي الحال اتجه تفكيري إلى ماري كافنديش، فاعتقال باورشتاين سيكون صدمة قاسية لها. ترى هل كانت مشتركة معه في الجريمة؟ ولكن ماذا يجب أن أفعل الآن؟ هل أذيع نبأ باورشتاين في القصر أم أنتظر حتى تذيعه الصحف كلها غداً؟ ليت بوارو كان موجوداً كي يرشدني إلى ما ينبغي عمله! وأخيراً قررت التزام الصمت.

ولكنني دُهشت في اليوم التالي حين لم أجد في الصحف أية إشارة إلى اعتقال باورشتاين، فقط كانت هناك بضعة سطور عن جريمة ستايلز الغامضة، ولكن لا توجد كلمة واحدة عن باورشتاين وعلاقته بالجريمة، فتطرق إلى ذهني أن المفتش جاب ربما تعمد حجب الخبر عن الصحف تمهيداً لاعتقالات أخرى.

وبعد الإفطار قررت أن أذهب إلى القرية لأرى ما إذا كان بوارو قد عاد من رحلته أم لا، وقبل أن أضع فكرتي موضع التنفيذ رأيت وجهه في النافذة وسمعت صوته يقول: طاب يومك أيها الصديق.

فهرولت إليه وهتفت وأنا أشد على يديه: لم أكن قط مشوقاً إلى لقاء إنسان كما كنت مشوقاً إلى لقائك. أصغ إليّ، أنا لم أذكر النبأ لأحد، فهل أحسنت صنعاً؟

- أيّ نبأ أيها الصديق؟

- نبأ إلقاء القبض على الدكتور باورشتاين.

- هل أُلقي القبض عليه؟

- ألم تكن تعلم؟

- نعم، لم أكن أعلم. ولكن النبأ لا يدهشني؛ فالمسافة بيننا هنا وبين الشاطئ لا تزيد على خمسة كيلومترات.

- الشاطئ؟! وما علاقة الشاطئ باعتقال باورشتاين؟ لقد اعتُقل بسبب الجريمة.

- بسبب الجريمة؟ من قال لك ذلك أيها الصديق؟ لقد قُبض عليه بتهمة التجسس.

- التجسس؟!

- نعم.

- ألم يُقبَض عليه لتسميمه السيدة أنجلثروب؟

- بالتأكيد لم يُقبَض عليه لهذا السبب، اللهم إلا إذا كان جاب قد فقد عقله.

- هل تريد أن تقول إن الرجل جاسوس؟

- ألم تفطن إلى ذلك؟

- إطلاقاً.

- ألم ترَ شيئاً من الغرابة في أن يأتي أحد كبار الأخصائيين ليدفن نفسه في هذه القرية الصغيرة ويتجول في كل ساعة من الليل والنهار في ثيابه كاملة؟

- الحق أنني لم أفكر بذلك.

- الأمر واضح.

- يبدو أنني شديد الغباء؛ فأنا لا أرى أية صلة بين قرب الشاطئ ومصرع السيدة أنجلثروب.

- لا توجد أية صلة طبعاً، فنحن نتحدث عن اعتقال باورشتاين. إنه ألماني المولد، وقد تجنس بالجنسية الإنكليزية منذ خمسة عشر عاماً وزاول العمل في لندن سنوات كثيرة حتى إنه لم يعد هناك من يظن أنه ليس إنكليزياً. إنه رجل ماهر.

- ويل لهذا الوغد! إذن ذلك هو الرجل الذي تخرج معه ماري كافنديش للنزهة في كل مكان؟

- لا شك أنها كانت ذات فائدة له لأن اهتمام الناس بمغامرتهما قد صرفهم عن متابعة تحركاته والارتياب فيه.

- هل تعتقد أنه كان يهتم بها؟

- هل تريد رأيي الخاص يا هيستنغز؟

- نعم.

- رأيي الخاص أن السيدة كافنديش لا تحبه، ولم تحبه قط.

ولم أستطِع إخفاء سروري فسألته: هل أنت واثق من ذلك؟

- كل الوثوق، وسأقول لك السبب.

- أسرع وأخبرني به.

- لأنها تحب شخصاً آخر يا صديقي.

وقبل أن أنطق بكلمة أخرى فُتح الباب فجأة ودخلَت إيفيلين هوارد، وبعد أن أجالت النظر حولها للتأكد من أنه لا يوجد في الغرفة سوانا أخرجت ورقة كبيرة سمراء من النوع الذي تحزم به الطرود والبضائع فقدمتها لبوارو وهي تقول: وجدتها فوق خزانة الثياب.

ثم انصرفت بسرعة كما دخلت، فبسط بوارو الورقة أمامه. كانت عليها بطاقة تحمل اسم محلات باركسون لتوريد الملابس المسرحية في لندن، وتحتها عنوان السيد كافنديش، قصر ستايلز.

سألت بوارو: هل لهذه الورقة شيء من الأهمية؟

– ربما، فهي تؤيد فكرة خطرت لي، وكنت قد توقعت وجودها فطلبت من الآنسة هوارد أن تبحث عنها.

ثم طوى الورقة بعناية ووضعها في جيبه، فسألته: وماذا عن الجريمة يا بوارو؟ هل توصلتَ إلى نتيجة؟

– نعم، وأعتقد أنني عرفت كيف ارتُكبت.

– حقاً؟

– نعم، ولكن من سوء الحظ أنني لا أملك الدليل. آه، هاهي دوركاس الطيبة.

ناداها: آنسة دوركاس.

وكان قد رآها من النافذة، فأقبلت تلبية لندائه، فقال لها: يا عزيزتي دوركاس، لقد خطرَت لي فكرة إذا ثبتَت صحتها كان ذلك نصراً عظيماً. أخبريني، هل حدث يوم الإثنين، أي في اليوم السابق للمأساة، أن أصيب جرس سيدتك بتلف؟

فنظرت إليه الوصيفة بدهشة وأجابت: يا إلهي! كيف عرفت ذلك؟ نعم، لقد تعطل الجرس، ويبدو أن فأراً قرض الأسلاك، وقد جاء رجل صباح الثلاثاء فأصلحه.

نظر إليّ بوارو وصاح مغتبطاً: أرأيت؟ الأدلة كلها هنا ولا ضرورة للبحث عنها في أي مكان آخر، يكفي أن تدع عقلك يعمل. أنا في قمة سعادتي أيها الصديق.

ثم انطلق يعدو ويقفز فوق العشب كمَن به مَسّ،

وسمعت صوتاً ورائي يقول: ماذا أصاب صديقك؟

ونظرت فرأيت ماري كافنديش تبتسم، فأجبت: الحقيقة أنني لا أعلم. لقد ألقى سؤالاً على دوركاس وسمع الجواب، فانطلق بعد ذلك كما رأيتِ.

فضحكَت. وكان واضحاً أنها في حالة نفسية طيبة فانتهزت الفرصة لأحدثها عن سنثيا. حدثتها عن موقف الفتاة ومشاعرها ومخاوفها، فأصغت إليّ في أناة وأخيراً قالت: أنت محام بارع يا سيد هيستنغز، ولكنك أتعبت نفسك عبثاً. قل لسنثيا إنه ليس هناك ما تخشاه مني لأنني سأرحل.

- ترحلين؟!

- نعم، لن أقيم في هذا القصر.

- هل قررت أنت وجون الإقامة في مكان آخر؟

- يستطيع جون أن يبقى، أما أنا فسأرحل.

- هل ستتركينه؟

- نعم.

- ولكن لماذا؟

صمتت وقتاً طويلاً قبل أن تجيب: ربما لأنني أنشد الحرية.

ثم أردفَت بعد قليل: أنت لا تعرف كم أكره هذا القصر؛ لقد كان بمثابة السجن.

- أنا أفهم شعورك، ولكن لا يجب أن تقدمي على عمل طائش.

وحينئذ نطقتُ بالعبارة التالية التي ندمت عليها فيما بعد أشد الندم، فقد قلت: هل تعلمين أن الدكتور باورشتاين قد اعتقل؟

فتحولَت على الفور إلى تمثال من الجليد وقالت بهدوء: لقد كان جون من الكرم بحيث أنبأني بذلك صباح اليوم.

- وما رأيك؟

- في ماذا؟

- في هذا الاعتقال.

- وهل يجب أن يكون لي رأي فيه؟ إنه جاسوس ألماني وسيلقى جزاء الجواسيس.

قالت ذلك ثم تركتني ومضت.

* * *

لم يظهر بوارو في صباح اليوم التالي، وكذلك لم أرَ أثراً للمفتش جاب وزميله. ونحو الظهر ظهر أمر جديد. كنا قد بحثنا عبثاً عن مصير رابع خطاب كتبته السيدة أنجلثروب ليلة مصرعها وكنا نرجو أن يرشدنا هذا الخطاب إلى أحد أسرار الجريمة، ولكن بريد الظهيرة حمل إلينا رسالة بددت هذا الرجاء. كانت الرسالة من متجر كبير يقوم بنشر القطع

الموسيقية، وفيه يقول إنه تسلّم الشيك الذي أرسلته السيدة أنجلثروب وإنه يأسف لعدم وجود بعض القطع ويرجوها أن تختار قطعاً سواها.

وقبل موعد الشاي ذهبت إلى بيت بوارو، ولكنني لم أجده، فسألت الخادمة: هل ذهب إلى لندن مرة أخرى؟

- لا يا سيدي، لقد استقل القطار إلى تادمنستر لزيارة صيدلية إحدى الفتيات.

- تباً له. لقد قلت له إن يوم الأربعاء هو يوم إجازتها. هل لك أن تطلبي منه مقابلتي غداً صباحاً؟

- حسناً يا سيدي.

* * *

في صباح اليوم التالي انتظرت بوارو ولكنه لم يحضر، وبعد الظهر قررت أن أذهب إليه مرة أخرى، وفي هذه المرة وجدته. كان جالساً أمام مكتبه ورأسه بين كفيه فوثب واقفاً عندما رآني، ولاحظت أنه مكفهرّ الوجه فسألته: هل أنت مريض؟

- لا، لست مريضاً، ولكنني في طريقي إلى اتخاذ قرار خطير.

- عن المجرم، هل تقبض عليه أم لا؟

- هل أتكلم أو لا أتكلم.

- هل أنت جاد؟

- لم أكن قط أكثر جداً مني الآن، فالأمر يتعلق بأهم شيء في الوجود.

- وما هو؟

- سعادة امرأة.

ولم أفهم شيئاً، فاستطرد بوارو قائلاً: لقد حان الوقت لكي اتخذ قراراً، وها أنا ذا لا أعرف ماذا أفعل.

وأدركت أنه لا يريد الإيضاح فانتقلت إلى الحديث عن سنثيا، وعتبت عليه لأنه نسي ما قلته له عن يوم إجازتها فقال: الواقع أنني نسيت، ولكن زميلتها كانت فتاة لطيفة فتداركت الأمر وعوضتني عن خيبة أملي.

وصمت لحظة ثم سأل فجأة: هل تعرف شيئاً عن بصمات الأصابع؟

- كل ما أعرفه أنه لا توجد بصمتان متشابهتان.

فتح درج مكتبه وأخرج عدداً من الصور الفوتوغرافية ووضعها أمامي وقال: لقد رقّمتها ١ و٢ و٣، فهل تستطيع أن تبدي رأياً فيها؟

فحصت الصور وأجبت: الصور جميعها مكبَّرة جداً، والصورة رقم ١ هي بصمة أصابع رجل، ورقم ٢ بصمة أصابع سيدة، ولعلك تلاحظ أنها صغيرة ومختلفة تماماً، أما الصورة

رقم ٣ فيبدو أنها تضم عدداً من البصمات المختلطة ولكن بصمات الصورة رقم ١ واضحة فيها.

- واضحة فوق البصمات الأخرى.

- أجل.

جمع الصور وأعادها إلى درج المكتب فقلت له: أنت لن توضح معنى هذه الصور كما هي العادة، أليس كذلك؟

- على العكس. رقم ١ هي صورة بصمة السيد لورنس، ورقم ٢ هي صورة بصمة الآنسة سنثيا، والبصمتان لا أهمية لهما، ولكنني حصلت عليهما فقط لمقارنتهما ببصمات الصورة رقم ٣، فرقم ٣ معقدة إلى حد ما كما رأيت.

- وماذا في ذلك؟

- أصغِ إليّ يا صديقي؛ رقم ٣ هي صورة مكبرة جداً لسطح قنينة صَغيرة كانت على الرف الأخير من خزانة السموم في صيدلية مستشفى تادمنستر.

- يا إلهي! ولكن كيف وجدت بصمة لورنس عليها؟ إنه لم يقترب من خزانة السموم يوم ذهبنا لزيارة سنثيا.

- بل اقترب.

- مستحيل، لقد كنا معاً طول الوقت.

- لا يا صديقي، لقد مرت لحظة لم تكونوا فيها معاً، وإلا ما طلبَت منه سنثيا أن يلحق بكما في الشرفة.

- آه، لقد نسيت ذلك، ولكنه لم يتخلف أكثر من دقيقة.

- وهي كافية.

- كافية لماذا؟

فقال بوارو وعلى شفتيه ابتسامة غامضة: كافية لأن يشبع رجل درس الطب فضوله الطبيعي.

والتقت أعيننا، فسألته: وماذا كان في تلك القنينة الصغيرة يا بوارو؟

- كانت فيها مادة هايدرو كلوريد الإستركنين، وهي مادة لا تستخدم في العقاقير الطبية إلا نادراً، ولهذا ظلت البصمات واضحة على القنينة.

- وكيف حصلتَ على صورتها؟

- أسقطت قبعتي من الشرفة، ولما لم يكن مسموحاً للزائرين بالتواجد في فناء المستشفى في ذلك الوقت فقد تكلفَت صديقة سنثيا اللطيفة عناء إحضار القبعة.

- هل كنتَ تعلم أنك ستجد هذه البصمات؟

- لا، ولكنني أدركت من روايتك أنه من المحتمل أن يعبث السيد لورنس بخزائن العقاقير السامة، وكان لا بد لي أن أؤكد هذا الاحتمال أو أن أستبعده.

قلت: بوارو، إن مرحك لا يخدعني! وهل لهذا

الاكتشاف أهمية؟

- لا أعلم، ولكن هناك ظاهرة لفتت نظري ولا شك أنها لفتت نظرك أيضاً.

- وما هي؟

- هي كثرة الإستركنين في هذه القضية؛ الإستركنين في دواء السيدة أنجلثروب، والإستركنين الذي باعه ميس، وهذا الإستركنين الذي تداولته يد أحد سكان هذا القصر... هذا كله محير، وأنا لا أحب الحيرة.

وقبل أن أتمكن من الإجابة فُتح الباب وأطل أحد البلجيكيين برأسه وقال: بالباب سيدة تسأل عن السيد هيستنغز.

هتفت: سيدة؟

ثم وثبت من مكاني وهبطت الدرَج، وتبعني بوارو عن كثب فوجدنا ماري كافنديش تقف بالباب، فقالت تحدثني: كنت في زيارة سيدة عجوز في القرية، وكانت إيفيلين قد قالت لي إنك عند السيد بوارو فخطر لي أن أصطحبك لنعود معاً.

فقال بوارو: واأسفاه يا سيدتي، ظننت أنك جئت لتشرّفيني بزيارتك.

فابتسمت وأجابت: سأزورك يوماً إذا دعوتني.

- اتفقنا إذن يا سيدتي، وإذا وجدت يوماً أنك بحاجة

إلى أب تعترفين له فتذكري أن الأب بوارو في خدمتك دائماً.

فنظرَت إليه طويلاً وكأنها تحاول أن تقرأ في وجهه معنى كلامه، ثم دارت على عقبيها فجأة وقالت: ألا تأتي معنا يا سيد بوارو؟

- سيسعدني ذلك يا سيدتي.

* * *

لم تكفّ ماري عن الكلام بحدة وبطريقة تدل على توتر الأعصاب طَوال الطريق إلى ستايلز، وخُيل إليّ أنها تحاول أن تتجنب نظرات بوارو دائماً. وعندما اقتربنا من باب القصر أسرعت إلينا دوركاس وقالت وهي تبكي وتدق صدرها: ماذا أقول لك يا سيدتي وكيف أخبرك بما حدث؟

فقلت لها بحزم: ماذا حدث يا دوركاس؟ تكلمي.

- لقد قبض الشرطيان على السيد كافنديش.

فصحت: قبضا على لورنس؟

- لا يا سيدي، لقد قبضا على السيد جون.

فأفلتَت من فم ماري صيحة مؤلمة وترنحت، فأسرعت لأتلقاها بين ساعدي، ووقع بصري على بوارو فرأيته يبتسم ابتسامة المنتصر.

* * *

الفصل العاشر

القضية

نُظرت قضية اتهام كافنديش بقتل زوجة أبيه بعد ذلك بشهرين. ولن أطيل الحديث عن الأسابيع التي سبقت المحاكمة، حسبي أن أقول إن ماري كافنديش ظفرت بكل إعجابي وعطفي خلال تلك الفترة لأنها وقفَت بشجاعة إلى جوار زوجها ورفضت الاتهام ودافعت عنه بأسنانها وأظافرها.

وقد عبّرت لبوارو عن إعجابي بها فقال: إنها من النساء اللائي لا يظهر معدنهنّ إلا في الشدائد. لقد أبرزَت هذه القضية أجمل وأصدق ما فيها، فتخلت عن كبريائها وغيرتها.

- غيرتها؟

- نعم، ألم تلاحظ أنها امرأة غيورة إلى أقصى حد؟ أقول إنها ألقت جانباً كبرياءها وغيرتها وأصبحت لا تفكر إلا في زوجها وفي المصير الرهيب الذي ينتظره.

كان يصدر في كلامه عن عاطفة صادقة مما ذكرني بحديثه عن القرار الخطير الذي تعيّن عليه أن يتخذه يوماً من أجل سعادة امرأة، فقلت له: أنا لا أكاد أصدق ما حدث، فقد كنت حتى اللحظة الأخيرة أعتقد أن الاتهام قد يُوجَّه إلى لورنس لا إلى صديقي الحميم جون.

- كل مجرم صديق حميم لشخص ما، فلا تخلط بين العقل والعاطفة.

- إنما كان ينبغي أن تنبهني.

- ربما لم أنبهك لأنه صديقك.

- هل تعتقد أنهم سيدينونه يا بوارو؟

- أكبر الظن أنه سيبرّأ. ألم أقل لك مراراً إنه ليس هناك أدلة؟ أن تعرف أن الشخص مذنب شيء، وأن تقدّم أدلة إدانته شيء آخر، والأدلة في هذه القضية قليلة وتنقصها الحلقة الأخيرة التي تربط بينهما، وما زلت لا أجد هذه الحلقة.

ثم هزّ رأسه فقلت له: متى بدأت ريبتك في جون كافنديش يا بوارو؟

- ألم ترتَب فيه أنت؟

- لم أرتَب فيه قط.

- حتى بعد أن سمعتَ الحديث الذي دار بين ماري كافنديش والسيدة أنجلثروب، وبعد أن وضح لك افتقار الأولى إلى الصراحة خلال جلسة التحقيق؟

- لا.

- ألم تقل لنفسك: "إذا لم يكن ألفريد أنجلثروب هو الذي تشاجر مع زوجته، وقد أكد أنه لم يتشاجر معها، فلا بد أن يكون الطرف الآخر في المشاجرة هو لورنس أو جون"، فإذا كان لورنس فسلوك ماري كافنديش لا يكون له معنى أو مبرر، أما إذا كان جون فالمعنى سيستقيم من جميع الوجوه.

- آه، إذن فهو جون الذي تشاجر مع زوجة أبيه، أليس كذلك؟

- بلى، تماماً.

- وهل كنتَ تعلم ذلك منذ البداية؟

- طبعاً، لأنه التفسير الوحيد لسلوك ماري كافنديش.

- ومع ذلك تقول إنه سيبرَّأ.

- طبعاً، نحن سنعرف أدلة الاتهام عندما تعرض القضية على محكمة الشرطة، ومن المرجَّح أن ينصح المحامي للمتهم بأن يحتفظ بدفاعه وهكذا تحال القضية إلى محكمة الجنايات، ويستطيع المتهم حينئذ أن يدلي بدفاعه. وبالمناسبة يجب أن أصارحك بأنني لن أتقدم للشهادة في هذه القضية، أولاً لأنني أعمل فيها بصفة غير رسمية، وثانياً لأننا نتعامل مع مجرم بارع لا ضمير له ويجب أن نلجأ إلى كل الوسائل المتاحة لنا وإلا أفلت من أيدينا، ولهذا أفضّل البقاء في الظل وأن يُنسَب النجاح في اكتشاف الأدلة للمفتش جاب.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: إذا كان ولا بد أن أدلي بشهادتي فسوف أكون شاهد نفي لا شاهد إثبات.

لم أصدق أذني، ومضى بوارو يقول: ذلك لأن في استطاعتي أن أهدم ركناً من أركان الاتهام.

- وما هو؟

- إنه الركن الخاص بإحراق الوصية، فجون كافنديش لم يحرق الوصية.

* * *

صحّ كل ما توقعه بوارو، ولا محل هنا لتسجيل كل ما قيل في محكمة الشرطة فهو تكرار للحقائق التي نعرفها، وبحسبي أن أقول إن جون احتفظ بدفاعه فأحيلت القضية إلى محكمة الجنايات.

وعندما أقبل شهر أيلول (سبتمبر) كنا جميعاً قد انتقلنا إلى لندن، فاستأجرَت ماري بيتاً في حي كنستغتون ونزل بوارو في ضيافتها، أما أنا فقد التحقت بوظيفة في وزارة الحربية، واستطعت بذلك أن أراهما كل يوم. ومع مرور الأيام زادت أعصاب بوارو توتراً لأنه لم يجد الحلقة الأخيرة التي تحدث عنها.

وفي الخامس عشر من شهر أيلول (سبتمبر) مَثُل جون كافنديش أمام محكمة جنايات أولدبيلي متهَماً بقتل زوجة أبيه إميلي أنجلثروب عمداً مع سبق الإصرار، وأكد المتهم أنه غير

مذنب، وقد تولى الدفاع عنه السير إيرنست هيفيويذر المحامي المشهور، في حين مثّل الاتهام السيد فيليبس المدعي العام.

وافتتح ممثل الاتهام الجلسة بعرض القضية، فقال إنها جريمة قتل وحشية دبرها المتهم بإحكام ونفّذها بقسوة، فقد وضع السم لزوجة أبيه التي كانت له بمثابة الأم والتي عُنيت به صغيراً وغمرته بكرمها عندما كبر وآوته هو وزوجته في قصر ستايلز وهيأت لهما حياة رغدة ورفاهية، ثم قال إن لديه شهوداً على أن المتهم كان منحلاً ومسرفاً وأنه كان غارقاً في الديون وله علاقة بسيدة متزوجة في مزرعة مجاورة تسمى السيدة ريكس، وعندما علمَت زوجة أبيه بسلوكه المشين دعته إليها بعد ظهر اليوم الذي لقيَت فيه مصرعها واشتدّت في تعنيفه، واحتدم بينهما شجار سُمع بعض ما دار فيه. وفي اليوم السابق للجريمة اشترى المتهم من صيدلية القرية كمية من الإستركنين بعد أن تنكر في زي رجل آخر أراد أن يُلقي عليه تبعة الجريمة، وذلك الرجل هو زوج السيدة أنجلثروب الذي كان المتهم يمقته ويغار منه، ولحسن الحظ استطاع السيد أنجلثروب أن يثبت براءته.

وصمت المدعي العام قليلاً ثم استطرد قائلاً: وبعد ظهر يوم ١٧ يوليو وعقب المشاجرة مباشرة كتبَت السيدة أنجلثروب وصية جديدة، وقد وُجدت بقايا تلك الوصية في مدفأة غرفتها في صباح اليوم التالي، ولكن هناك أدلة على أن تلك الوصية الجديدة كانت لصالح زوجها. وكانت المجني عليها قد كتبت قبل زواجها وصية أخرى لصالح الزوج نفسه، ولكن المتهم

لم يعلم بأمرها، كذلك لا يعلم المتهم لماذا كتبت المجني عليها الوصية الجديدة رغم وجود الوصية القديمة؛ فمن المحتمل أن تكون المجني عليها قد نسيت -بحكم تقدمها في السن- الوصية القديمة، أو لعلها ظنت أن الزواج قد ألغاها، خاصة وقد دار بينها وبين أفراد الأسرة حديث بهذا المعنى. والنساء كما هو معلوم لا يعرفن الكثير في هذه الأمور القانونية، وكذلك قد ثبت أن المجني عليها كتبت قبل عام وصية لصالح المتهم.

ونظر إلى القاضي ثم استطرد قائلاً: وسأقدم شهوداً على أن المتهَم هو الذي حمل القهوة إلى المجني عليها في ليلة مصرعها، كما أن هناك أدلة على أنه تسلل إلى غرفتها في تلك الليلة ووجد الوصية وأحرقها ظناً منه أن إحراقها سيجعل الوصية التي كُتبت لصالحه قبل عام نافذة المفعول. وقد قبض المفتش جاب على المتهم بعد أن وجد في غرفته زجاجة الإستركنين التي اشتراها من صيدلية القرية قبل الجريمة.

وبذلك أنهى ممثل الاتهام عرضه لظروف الجريمة، ثم جفف العرق المتصبب على جبينه وجلس. بعد ذلك استمعَت المحكمة إلى شهود الإثبات الذين أدلوا بأقوالهم في جلسة التحقيق، وقد جاء السيد ميس الصيدلي وتعرّف على الزجاجة التي وُجدت في غرفة المتهم وقال إنه باعها للسيد أنجلثروب الذي لم يكن يعرفه إلا بالاسم فقط، ثم دُعي أنجلثروب فأنكر أنه اشترى الإستركنين أو أنه تشاجر مع زوجته وأيّده بعض الشهود، كما شهد البستاني ومساعده بأنهما وقّعا باسميهما

على الوصية، ثم جاءت دوركاس الأمينة فأنكرت بشدة أن الصوت الذي سمعته في المشاجرة كان صوت جون وأصرّت على أنه كان صوت أنجلثروب نفسه.

فسألها السيد فيليبس: هل تذكرين طرداً جاء من محلات باركسون إلى السيد لورنس كافنديش في شهر حزيران (يونيو) الماضي؟

- لا أذكر يا سيدي. ربما ورد، ولكن السيد لورنس كان غائباً في ويلز خلال ذلك الشهر.

- ماذا يحدث عادة إذا ورد له طرد في أثناء غيابه؟

- إما أن يوضع في غرفته أو يُرسَل إليه حيث يكون.

- هل أنتِ التي تفعل ذلك؟

- لا يا سيدي، أنا أضعه على مائدة في البهو لتتولى الآنسة إيفلين هوارد أمره.

ثم دُعيت إيفيلين هوارد، وبعد استجوابها وسؤالها عن الطرد أجابت: لا أذكر شيئاً عنه، فكثيراً ما ترد طرود.

- ألا تذكرين ما إذا كان هذا الطرد قد أُرسل إلى السيد لورنس في ويلز أو وُضع في غرفته؟

- لا أظن أنني أرسلته إليه.

- هبي أن طرداً ورد باسم السيد لورنس كافنديش ثم اختفى بعد ذلك فهل ستلاحظين اختفاءه؟

- لا يا سيدي، بل سوف يتبادر إلى ذهني أن أحداً تولى أمره.

- أظن يا آنسة هوارد أنكِ أنت التي وجدت هذه الورقة السمراء، أليس كذلك؟

ثم عرض عليها الورقة التي كانت قد وجدتها فوق الخزانة وقدمتها إلى بوارو.

أجابت: بلى يا سيدي، أنا التي وجدتها.

- كيف عثرت عليها؟

- كلفني الشرطي البلجيكي المنوط بالقضية بالبحث عنها.

- وأين وجدتها؟

- فوق الخزانة.

- هل كانت خزانة المتهم؟

- أظن ذلك.

- ألست أنت التي وجدتها؟

- بلى، أنا التي وجدتها.

- إذن لا بد أنك تعرفين أين وجدتها، أليس كذلك؟

- بلى، لقد وجدتها فوق خزانة المتهم.

ثم جاء موظف محلات باركسون للملابس المسرحية

فأكد أنه تلقى رسالة من السيد كافنديش قد طلب في الرسالة موافاته بلحية مستعارة سوداء، وأن اللحية أُرسلت إليه في طرد بتاريخ ٢٩ حزيران.

وهنا نهض السير إيرنست وشرع في مناقشة الشاهد: من أين صدرَت الرسالة؟

- من ستايلز.

- وهل أرسلتَ الطرد إلى هذا العنوان؟

- نعم.

- كيف عرفتَ أن الرسالة صدرَت من ستايلز؟ هل رأيتَ خاتم مكتب البريد؟

- لا، ولكن...

- آه، أنت لم ترَ خاتم البريد، ومع ذلك تؤكد أن الرسالة صدرت من ستايلز، أما كان يمكن أن يكون عليها خاتم بريد آخر؟

- بلى.

- ألا يمكن أن تكون الرسالة قد كُتبت على ورقة مطبوعة باسم وعنوان قصر ستايلز ثم أُرسلت من ويلز؟

- بلى، هذا ممكن.

- حسناً، هذا يكفي.

ثم دُعيَت إليزابيث ويست، إحدى خادمات قصر

ستايلز، فأكدت إنها بعد أن ذهبَت إلى فراشها في ليلة الجريمة تذكرت أنها أوصدت الباب الخارجي بالمزلاج خلافاً لتعليمات السيد أنجلثروب، فهبطت الدرَج لتصحح خطأها، وأنها سمعت حركة في الجناح الأيسر فنظرت في الدهليز فرأت السيد جون كافنديش يطرق باب السيدة أنجلثروب.

فنهض السير إيرنست لمناقشتها وراح يلقي عليها السؤال تلو السؤال دون أن يدع لها فرصة للتفكير حتى اضطربت وناقضت نفسها، وعلى إثر ذلك رُفعت الجلسة على أن تعود للانعقاد في صباح اليوم التالي.

* * *

في الطريق إلى البيت راحت ماري تتحدث عن ممثل الاتهام بمرارة، فقالت: ذلك الرجل البغيض! لقد ألقى شباكه حول المسكين وراح يضخّم الحقائق الصغيرة ليجعلها تبدو أكبر من حجمها.

فقلت لأُسرّي عنها: اطمئني، سوف يتغير الوضع غداً.

- أجل، أجل، ولكن حدثني يا سيد هيستنغز، ألا يمكن أن يكون لورنس هو الذي... ولكن لا، هذا مستحيل.

غير أنني كنت أيضاً في حيرة شديدة، وما إن خلوت إلى بوارو حتى سألته عما يهدف إليه السير إيرنست، فأجاب بلهجة الإكبار: السير إيرنست رجل بارع.

- هل هو مؤمن ببراءة جون؟

- لا أظن أنه يؤمن بشيء، فهدفه -فيما أعتقد- هو إحداث أكبر قدر من الاضطرابات والفوضى في أذهان المحلفين حتى تختلف آراؤهم حول أيّ الأخوين هو المذنب، والآن هو يحاول إقناع المحلفين بأن الأدلة والقرائن ضد لورنس لا تقل عن مثيلاتها ضد جون، وأنا على يقين من أنه سينجح في ذلك.

* * *

كان المفتش جاب هو أول الشهود في جلسة اليوم التالي، وقد أدلى بأقواله بإيجاز ووضوح وقال بعد أن روى الأحداث الأولى: وبناء على المعلومات التي تلقيناها قمت أنا والمفتش سمرهاي بتفتيش غرفة المتهم في أثناء غيابه فعثرنا في أحد الأدراج على نظارات تشبه نظارات السيد أنجلثروب مخبأة تحت الملابس، كما عثرنا على هذه الزجاجة الصغيرة التي تعرّف عليها الصيدلي والتي فيها بقية من سم الإستركنين.

ثم قال جاب إنه عثر كذلك في دفتر شيكات المجني عليها على ورقة نشاف جديدة وضعتها أمام المرآة فعكسَت هذه الكلمات: «كل ممتلكاتي وأموالي أتركها بعد موتي لزوجي المحبوب ألفريد أنجلثروب»، مما يؤكد أن الوصية التي أُحرقت كانت لصالح زوج المجني عليها، ثم أبرز جاب اللحية السوداء وقصاصة الورق المحترقة التي وُجدت في المدفأة، وبذلك انتهت أقواله.

ونهض السير إيرنست لمناقشته فسأله: في أيّ يوم قمتَ

بتفتيش غرفة المتهم؟

- في يوم الثلاثاء ٢٤ تمّوز (يوليو).

- تقول إنك وجدت النظارات والزجاجة في دُرج الملابس، فهل كان الدرج مفتوحاً؟

- نعم.

- ألا ترى أنه من غير المعقول أن يضع الرجل الذي ارتكب جريمة قتل أدلة الجريمة في دُرج مفتوح حيث يستطيع أيّ إنسان أن يجدها؟

- لعله وضعها هناك على عجل.

- ولكنك قلت منذ لحظة إن أسبوعاً مرّ على ارتكاب الجريمة، أي كان لديه الوقت الكافي لنقل الأدلة أو تدميرها.

- ربما.

- لا توجد ربما. هل كان لديه الوقت الكافي لنقل الأدلة أو تدميرها أم لم يكن؟

- كان لديه الوقت الكافي.

- هل كانت الثياب الداخلية التي أُخفيت تحتها الأدلة ثقيلة أم خفيفة؟

- كانت ثقيلة.

- معنى ذلك أنها ثياب شتوية، ومن الطبيعي ألاّ يتوجه

إلى الدرج الذي به هذه الثياب، أليس كذلك؟

- ربما لا.

- أرجو الإجابة على سؤالي. هل من الطبيعي أن يتوجه المتهم في أشدّ أسابيع الصيف حرارة إلى الدرج الذي يحتوي على ملابس الشتاء؟ نعم أم لا؟

- لا.

- في هذه الحالة ألا يمكن أن يكون شخص آخر قد وضع الأدلة في الدرج، وأن يكون المتهم لا يعلم شيئاً عنها؟

- لا أظن أن ذلك ما حدث.

- ولكنه ممكن الحدوث، أليس كذلك؟

- بلى، هو ممكن الحدوث.

ثم توالت الأدلة، أدلة على سوء مركز المتهم وأدلة على مغامراته مع السيدة ريكس. مسكينة ماري! لا بد أن تكون هذه الأدلة قد حطمت كبرياءها.

ثم دُعي لورنس كافنديش لأداء الشهادة، فأجاب بصوت خافت على أسئلة ممثل الاتهام فنفى أنه طلب شيئاً من محلات باركسون في شهر حزيران (يونيو)، وقال إنه كان موجوداً في ويلز في يوم ٢٩حزيران. ثم قام السير إيرنست لمناقشة المتهم فسأله: هل تنكر أنك طلبت لحية سوداء من محلات باركسون؟

- نعم، فأنا لم أطلب شيئاً.

- إذا حدث لأخيك شيء فمن يرث قصر ستايلز؟

كان السؤال من القسوة بحيث احمرّ وجه الشاهد بعد امتقاع، وقد تمتم القاضي بكلمات تنم عن الاستهجان وهزّ المتهم قضبان قفصه الحديدي غضباً. ولكن المحامي لم يعبأ بغضب موكله وصاح بالشاهد: أجب على سؤالي.

فأجاب لورنس بهدوء: أظن أنني أرثه.

- ماذا تعني بكلمة أظن؟ أخوك لم يُرزَق بأولاد، إذن أنت الذي سترثه، أليس كذلك؟

- بلى، أنا الذي سأرثه.

- وترث كذلك جانباً كبيراً من ثروته، أليس كذلك؟

قال القاضي محتجّاً: أعتقد أن هذه الأسئلة لا ضرورة لها يا سير إيرنست.

فحنى السير إيرنست رأسه موافقاً ولكن بعد أن كان قد أطلق سهمه، ثم عاد إلى استجوابه قائلاً: هل ذهبت في يوم الثلاثاء ١٧تمّوز (يوليو) ومعك زائر آخر لزيارة صيدلية مستشفى تادمنستر؟

- نعم.

- وهل انتهزتَ فرصة وجودك وحدك لبضع ثوان ففتحتَ خزانة العقاقير السامة وفحصتَ بعض الزجاجات؟

- قد... قد أكون فعلت ذلك.

- أنا أقول بأنك فعلتَ ذلك.

- أجل.

- هل فحصتَ زجاجة بعينها؟

- لا، لا أظن أنني فعلت.

- حذارِ يا سيد كافنديش. أنا أتكلم عن زجاجة صغيرة فيها هايدور كلوريد الإستركنين.

- لا، أنا واثق من أنني لم أفعل.

- إذن كيف تفسر وجود بصمات أصابعك على الزجاجة؟

كانت خشونة السير إيرنست في المناقشة خليقة بأن تدمر الشاهد العصبي، فقال لورنس بلسان متلعثم: أعتقد أنني تناولت الزجاجة.

- أنا أيضاً أعتقد ذلك. هل تناولتَ شيئاً من محتويات الزجاجة؟

- لا بالتأكيد.

- إذن لماذا تناولتها؟

- لقد درست الطب، ومن الطبيعي أن تهمني تلك الأشياء.

– آه، من الطبيعي أن تهمك السموم؟ ومع ذلك انتظرت حتى أصبحت وحدك كي تمارس اهتماماتك؟

– كان ذلك مجرد مصادفة، ولو كان بقي الآخرون لفعلت نفس الشيء.

– ولكن ما حدث فعلاً هو أن الآخرين لم يبقوا.

– أجل، ولكن...

– الواقع أنك طَوال فترة ما بعد الظهر لم تنفرد بنفسك أكثر من دقيقتين، وشاءت المصادفة، أقول المصادفة، ألاّ يظهر اهتمامك الطبيعي بالإستركنين إلا خلال هاتين الدقيقتين.

فقال لورنس متلعثماً: أنا... أنا...

ولم يدع له السير إيرنست فرصة للكلام فقال: لم يبقَ هناك ما أسألك عنه يا سيد كافنديش.

* * *

أحدثت هذه المناقشة تأثيراً عميقاً في قاعة الجلسة، فالتقت الرؤوس وزاد التهامس وحدثت جلبة غير عادية اضطرت القاضي إلى التهديد بإخلاء قاعة الجلسة إذا لم يَسُد النظام. ثم نودي خبراء الخطوط للإدلاء برأيهم في توقيع ألفريد أنجلثروب في سجل السموم الخاص بصيدلية القرية، فأكدوا بالإجماع على أن التوقيع ليس بخطه، ولكن يحتمل أن يكون بخط المتهم نظراً للتشابه بينه وبين خط التوقيع.

وبدأ السير إيرنست دفاعه عن المتهم، وكان دفاعاً قصيراً مركزاً فيه كثير من ملامح القوة، فقال إنه لم يرَ طوال حياته العملية اتهاماً في جريمة قتل يستند إلى أدلة أشد ضعفاً من أدلة هذا الاتهام، ليس لأنها تقوم على القرائن فقط وإنما لأن الجانب الأكبر منها لم يثبت كذلك، ثم طلب من المحلفين أن ينظروا إلى أقوال الشهود بغير تحيّز، فالإستركنين مثلاً قد وُجد في دُرج المتهم، وقد ثبت أن الدرج كان مفتوحاً ولم يقم دليل على أن المتهم هو الذي أخفى السم فيه، والواقع أن إخفاء السم في ذلك الدرج كان محاولة آثمة من صنع شخص آخر أراد الإيقاع بالمتهم وإثبات التهمة عليه، وقد عجز ممثل الاتهام تماماً عن إبراز أيّ دليل على أن المتهم طلب اللحية السوداء من محلات باركسون، أما الخلاف الذي شجر بين المتهم وزوجة أبيه فالمتهم قد اعترف به، وإن كان هذا الخلاف ومتاعب المتهم المالية قد بولغ فيهما كثيراً.

ونظر إلى ممثل الاتهام ثم استطرد قائلاً: وقد قال الزميل المحترم ممثل الاتهام إن المتهم لو كان بريئاً لتقدم بنفسه إلى جلسة التحقيق واعترف بأنه هو الطرف الثاني في المشاجرة وليس السيد أنجلثروب، ولكن يبدو أن الحقائق قد أُسيء عرضها لأن ما حدث فعلاً هو الآتي: عندما عاد المتهم إلى البيت مساء الثلاثاء قال له مصدر لا يشك في صدقه إن شجاراً عنيفاً وقع بين السيدة أنجلثروب وزوجها، فلم يتطرق إلى ذهن المتهم أن هناك من يخطئ في معرفة صوته ويتوهم أنه صوت أنجلثروب، وهكذا اعتقد المتهم أن زوجة أبيه قد تشاجرت مرتين: مرة معه، ومرة أخرى مع زوجها.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: وقال ممثل الاتهام إنه في مساء يوم الإثنين ١٦ حزيران (يونيو) ذهب المتهم إلى صيدلية القرية متنكراً في زي السيد أنجلثروب، والواقع أن المتهم كان في ذلك الوقت في بقعة مهجورة تدعى مطحن مارستون، وقد ذهب إليها تلبية لرسالة من مجهول كُتبت بأسلوب ابتزازي وتضمنت تهديداً بإطلاع زوجته على أمور معينة إذا هو لم يستجب لما جاء في الرسالة. وهكذا ذهب المتهم إلى ذلك المكان، وبعد أن انتظر زهاء نصف ساعة بلا جدوى عاد إلى البيت، ومن سوء الحظ أنه لم يَلتقِ في الذهاب والإياب بأيّ شخص يمكن أن يؤيد صدق تلك القصة، ولكن من حُسن الحظ أنه احتفظ بالرسالة وسيقدمها وكيل الدفاع كدليل.

ونظر إلى أوراقه نظرة قصيرة ثم استطرد قائلاً: أما الوصية التي قيل إن المتهم أحرقها فالمتهم يعلم جيداً أن الوصية التي كُتبت لصالحه قبل عام قد أصبحت ملغاة بعد زواج امرأة أبيه لأنه قد مارس المحاماة في وقت ما. وإن الدفاع على استعداد لأن يقيم الدليل على أن شخصاً آخر هو الذي أحرق الوصية، مما قد يترتب عليه تحول جديد في سير القضية.

ثم لفت الدفاع أنظار المحلفين إلى وجود أدلة ضد أناس آخرين غير جون كافنديش، ومن هؤلاء -على سبيل المثال- السيد لورنس كافنديش الذي تكاد الأدلة ضده أن تكون في قوة الأدلة ضد أخيه وربما أقوى، ثم طلب الدفاع استجواب المتهم. واستطاع جون بفضل لباقة السير إيرنست وحسن إرشاده أن يُقنع المحلفين بقصته. ثم أبرز السير إيرنست

الرسالة التي تلقاها المتهم وقدمها إلى المحلفين لفحصها، وكان لاعتراف جون الصريح بمتاعبه المالية وبمشاجرته مع زوجة أبيه وقع طيب دعم موقفه.

وفي نهاية المناقشة تريث جون قليلاً ثم قال: يهمني أن أوضح أمراً واحداً، وهو أنني أرفض تماماً ولا أقرّ أبداً تلميحات السير إيرنست ضد أخي لأنني واثق من براءة أخي بقدر ثقتي من براءتي.

فابتسم السير إيرنست ولاحظ بارتياح الأثر الطيب الذي تركه هذا التصريح في نفوس المحلفين. ثم بدأ استجواب المتهم فسأله السيد فيليبس ممثل الاتهام: لقد قلتَ إنه لم يتطرق إلى ذهنك أن الشهود في جلسة التحقيق قد أخطؤوا وظنوا أنهم سمعوا صوت أنجلثروب لا صوتك، أفلا ترى أن هذا الكلام يبعث على الدهشة؟

- لا، فقد قيل لي إنه كانت هناك مشاجرة بين السيدة أنجلثروب وزوجها، فلم يخطر لي ببال أن ذلك غير صحيح.

- حتى بعد أن ذكرَت دوركاس فقرات من الحديث التي لا بد أنك تذكرها جيداً؟

- أنا لا أذكرها.

- لا بد أن ذاكرتك ضعيفة بطريقة غير مألوفة.

- لا، ولكنني كنت غاضباً، وقد قلت كلاماً كثيراً ولم

ألق بالاً إلى كلمات أمي.

ثم انتقل السيد فيلبس إلى موضوع آخر، قال: لقد أبرزتَ هذه الرسالة في الوقت المناسب. ولكن أخبرني، ألم تلاحظ شيئاً مألوفاً في الخط الذي كُتبت به؟

- لم ألاحظ أي شيء غريب.

- ألا ترى أن هناك تشابهاً ملحوظاً بينه وبين خطك بعد قليل من التغيير؟

- لا أظن ذلك.

- أنا أقول إنه خطك.

- لا.

- لقد كتبت هذه الرسالة بعد أن اخترعت قصة الموعد المزعوم في ذلك المكان المهجور تأييداً لقصتك.

- لا.

- أليس صحيحاً أنك في الوقت الذي زعمت أنك ذهبتَ فيه إلى المكان المهجور كنت في الواقع في الصيدلية حيث اشتريت الإسترکنين باسم السيد أنجلثروب؟

- هذا كذب.

- أنا أقول إنك أنت الذي ارتديت أحد ثياب السيد أنجلثروب وتنكرت بلحية كلحيته ووضعت على عينيك نظارات كنظاراته ووقّعت على السجل باسمه.

- لم يحدث هذا.

- إذن أنا أترك لهيئة المحلفين الحكم على التشابه الواضح بين خط الرسالة وخط التوقيع وخطك.

قال ذلك وعاد إلى مقعده. ولما كان الوقت متأخراً اكتفَت المحكمة بهذا القدر، ثم أمر القاضي برفع الجلسة على أن يُستأنف نظر القضية في صباح الإثنين.

وقد لاحظت عبوس بوارو ووجومه فسألته: ماذا بك يا بوارو؟

- الأمور تسير من سيء إلى أسوأ أيها الصديق، ولم أعثر بعدُ على الحلقة الأخيرة.

* * *

عندما وصلنا إلى البيت دعته ماري لتناول الشاي، ولكنه اعتذر وهرول إلى غرفته، وعندما لحقت به وجدته جالساً مقطب الجبين أمام مكتبه وأمامه بعض أوراق اللعب يحاول أن يقيم بها بيتاً فسألته: ما هذا الذي تفعله يا بوارو؟

- أنا أحاول تهدئة أعصابي، هذا كل ما في الأمر. وهذه العملية تتطلب اتزان الأصابع، واتزان الأصابع معناه اتزان العقل.

ثم رأيت البيت المصنوع من ورق اللعب يرتفع طابقاً بعد طابق فقلت له بإعجاب: ما أثبت يدك يا بوارو! لقد حدث أن رأيت يدك ترتجف مرة واحدة فقط.

- لا بد أنني كنت ثائراً.

- بل كنتَ في قمة الثورة. هل تذكر متى حدث ذلك؟ حدث حين اكتشفتَ أن قفل حقيبة أوراق السيدة أنجلثروب قد فُتح عنوة، وقتئذ وقفت أمام المدفأة وأخذت تعيد تنظيم التحف والأشياء التي فوقها، فلاحظت أن يدك ترتجف كريشة في...

ولم أتم عبارتي، فقد أرسل بوارو فجأة صيحة مزعجة، وهدم بيت الورق الذي شيده ثم وضع يديه فوق عينيه ووقف يترنح، وقد استولى عليّ الذعر فهتفت: ماذا أصابك يا بوارو؟ هل أنت مريض؟

- لا، لا، لقد خطرت لي فكرة.

- هل هي كسائر أفكارك الصغيرة المألوفة؟

- لا، بل هي فكرة هائلة في هذه المرة... هائلة!

ثم انقضّ عليّ وضمني إلى صدره وقبّل جبيني، ثم انطلق يعدو إلى الخارج كالمجنون.

* * *

الفصل الحادي عشر
الحلقة الأخيرة

لم يعد بوارو في تلك الليلة، وقد انتظرنا عودته في الصباح دون جدوى، وفي نحو الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم -وكان يوم أحد- وقفَت إحدى سيارات الأجرة بالباب وهبط منها بوارو ومعه المفتشان جاب وسمرهاي. وكان بوارو متهلل الوجه هادئ الأعصاب، فحنى قامته لماري كافنديش باحترام مبالَغ فيه وقال: هل تسمح لي سيدتي بأن أعقد اجتماعاً صغيراً في قاعة الاستقبال؟

فارتسمت على شفتَيها ابتسامة حزينة وأجابت: أنت تعلم يا سيد بوارو أن كل مطلب لك مجاب.

- أنت كريمة جداً يا سيدتي.

ثم دعانا جميعاً للاجتماع به في قاعة الاستقبال، وقال وهو يحدد لكل منا مكانه: آنسة هوارد هنا، آنسة سنثيا، سيد لورنس، دوركاس الطيبة، هذا حسن، ويجب أن ننتظر بضع دقائق ريثما يحضر السيد أنجلثروب فقد أرسلت في طلبه.

وثبت إيفيلين هوارد من مقعدها وصاحت: إذا جاء هذا الرجل فسوف أغادر البيت.

فقال بوارو: لا، لا يا آنسة هوارد.

ومضى يتحدث إليها بصوت خافت حتى عادت إلى مقعدها. وبعد بضع دقائق دخل ألفريد أنجلثروب، وما إن استقر كل واحد في مكانه حتى نهض بوارو واقفاً، وبعد أن حنى قامته تحية للموجودين كما يفعل المحاضر قال: سيداتي وساداتي، لقد دعاني السيد جون كافنديش -كما تعلمون جميعاً- لبحث هذه القضية، فشرعت على الفور في تفتيش غرفة المجني عليها، وكانت قد أغلقت بأمر الطبيبَين، ولهذا وجدتها في نفس الحالة التي كانت عليها عند وقوع الحادث. وكانت نتيجة التفتيش أنني عثرت على ثلاثة أشياء: الأول هو بعض خيوط من نسيج أخضر اللون، والثاني بقعة كبيرة، لا تزال رطبة، على السجادة بالقرب من النافذة، والثالث علبة فارغة كانت فيها مادة البروميد.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: والآن سأتحدث عن الخيوط الخضراء. لقد وجدت تلك الخيوط عالقة بمزلاج الباب الموصل بين غرفة المجني عليها وغرفة الآنسة سنثيا، وقد وضعت تلك الخيوط بين أيدي رجال الشرطة فلم يجدوا لها أهمية، بل ولم يستطيعوا تمييزها كجزء من أحد الأكمام الخضراء التي يستخدمها العاملون في المزارع والحظائر عند حلب الأبقار. ولم يكن في قصر ستايلز مَن يُعنى بحلب الأبقار سوى السيدة كافنديش. إذن لا بد أن تكون السيدة كافنديش

هي التي دخلت غرفة المَجني عليها من الباب الموصل بين هذه الغرفة وغرفة الآنسة سنثيا.

وهنا صحت: ولكن ذلك الباب كان موصَداً بالمزلاج من الداخل.

فأجاب بوارو: أجل، فعندما فتشت الغرفة كان ذلك الباب موصَداً بالمزلاج من الداخل، ولكن قبل التفتيش، أو على الأصح عند محاولة الوصول إلى غرفة السيدة أنجلثروب لنجدتها، كانت السيدة كافنديش هي التي عالجت ذلك الباب بالذات، وهي التي قالت إنه موصَد بالمزلاج من الداخل. والحقيقة أنه لم يكن موصَداً وأنها انتهزت فرصة الاضطراب الذي حدث بعد اقتحام الغرفة فأوصدت الباب بالمزلاج.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: وقد أردت التحقيق من صحة استنتاجاتي فوجدت أن الخيوط الخضراء منزوعة فعلاً من أحد الأكمام التي تستخدمها السيدة كافنديش في حلب الأبقار. وقد قالت السيدة كافنديش في جلسة التحقيق إنها كانت في غرفتها حين سمعت صوت سقوط المائدة الصغيرة في غرفة السيدة أنجلثروب، وأردت أن أتحقق من ذلك أيضاً فأوقفت صديقي السيد هيستنغز بجوار بابها وتعمدت إسقاط المائدة في غرفة السيدة أنجلثروب، وكانت النتيجة كما توقعت، فلم يسمع السيد هيستنغز أيّ صوت على الإطلاق، مما رجّح اعتقادي بأن السيدة كافنديش لم تذكر الحقيقة حين قالت إنها كانت ترتدي ثيابها في غرفتها وقت المأساة. والواقع أنها كانت في غرفة المجني عليها حين دقت هذه الأخيرة

الجرس الذي أيقظ وصيفتها.

وهنا حانت مني التفاته إلى ماري كافنديش فإذا بها تبتسم رغم شحوب وجهها، ثم استطرد بوارو قائلاً: ومن هذا المنطق تصورت الأحداث على النحو التالي: لقد دخلَت السيدة كافنديش غرفة المجني عليها للبحث عن شيء، ولم تكن قد عثرت بعدُ عليه حين استيقظت السيدة أنجلثروب فجأة على نوبة ألم حادة وبسطت يدها بعنف فأسقطَت المائدة الصغيرة التي بجوار فراشها، ثم عثرت على زر الجرس وضغطته بعنف.

ونظر إلى السيدة كافنديش وسألها: هل أنا على صواب يا سيدتي؟

- نعم يا سيدي، ولكن يجب أن تدرك أنه لو كان الكشف عن تلك الحقائق يفيد زوجي لما ترددت في الاعتراف بها، ولكنني رأيت أنها لن تؤثر على براءته أو إدانته.

- هذا صحيح إلى حد ما يا سيدتي، ولكن تلك الحقائق جنّبتني التخبط وجعلتني أرى الأمور بوضوح.

صاح لورنس: إذن أنت التي أحرقت الوصية يا ماري؟

فهزّ بوارو رأسه وكذلك فعلت ماري، وقال بوارو: لا، لا يوجد سوى شخص واحد كان في استطاعته أن يحرق الوصية، وذلك الشخص هو السيدة أنجلثروب نفسها.

صحت: مستحيل، فقد كتبتها منذ ساعات قلائل فقط!

قال بوارو: أجل يا صديقي، السيدة أنجلثروب هي التي أحرقتها، وإلا فبمَ تفسّر الأمر الذي أصدرته بإشعال النار في مدفأة غرفتها في يوم من أشد الأيام حرارة وقَيظاً؟ لقد كانت درجة الحرارة في ذلك اليوم ثمانين درجة فهرنهايتية في الظل، ومع ذلك أمرت السيدة أنجلثروب بإشعال النار في المدفأة، فلماذا؟ لأنها أرادت تدمير شيء لم تجد وسيلة أخرى لتدميره. وأنتم تعلمون أن القصر كان يطبّق اقتصاديات الحرب التي تقضي بالاحتفاظ بالأوراق المهمَلة، ولم تكن هناك وسيلة أخرى للتخلص من ورقة سميكة كالورقة التي كُتبت عليها الوصية، وهكذا فعندما علمت أن السيدة أنجلثروب أمرت بإشعال النار في مدفأتها استنتجت على الفور أنها تريد إحراق وثيقة هامة قد تكون وصية، ولذلك لم أُدهش حين وجدت تلك القصاصة في رماد المدفأة. ولم أكن أعلم وقتئذ أن الوصية كُتبت بعد ظهر ذلك اليوم فقط، فلما علمت تصورت مخطئاً أن السيدة أنجلثروب إنما قررَت إعدام الوصية كنتيجة مباشرة للمشاجرة التي وقعَت بعد ظهر ذلك اليوم.

لكن المشاجرة وقعت بعد كتابة الوصية لا قبلها، وقد اضطُررت بعد أن تبيّنت خطئي إلى مواجهة المشكلة من زاوية أخرى. وكانت دوركاس قد أكدت أنها في الساعة الرابعة سمعَت سيدتها تقول بغضب: "لا يجب أن يُتصوَّر أن الخوف من فضيحة بين الزوج وزوجته يمكن أن يثنيني عما قررت"، فاستنتجت، وكان استنتاجي صحيحاً، أن هذا الكلام كان موجَّهاً إلى السيد جون كافنديش لا إلى زوجها. وفي الساعة الخامسة، أي بعد ساعة، استعملَت السيدة أنجلثروب نفس

الألفاظ ولكن من وجهة نظر أخرى حين قالت لدوركاس: "أنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعل، فالفضيحة بين الزوج وزوجته أمر مخيف". وقد كانت في الساعة الرابعة غاضبة ولكنها لم تفقد سيطرتها على نفسها، أما في الساعة الخامسة فقد كانت تمر بأزمة نفسية عنيفة وقالت إن الأمر كان صدمة شديدة لها.

وقد نظرت إلى الموضوع من الناحية النفسية فخلصت إلى نتيجة اعتقدت أنها صحيحة، وهي أن الفضيحة التي تكلمَت عنها في المرة الثانية كانت غير الفضيحة التي تكلمَت عنها في المرة الأولى، فقد كانت تخصها شخصياً. وقد تصورت الأحداث على النحو التالي:

في الساعة الرابعة تشاجرَت السيدة أنجلثروب مع جون كافنديش وهددته بأن تخبر زوجته التي سمعَت جانباً من الحديث، وفي الساعة الرابعة والنصف، ونتيجة لحوار سبق أن دار حول الوصايا وصحتها، كتبَت السيدة أنجلثروب وصية جديدة لصالح زوجها شهد عليها البستانيان، وفي الساعة الخامسة وجدَت دوركاس سيدتها مضطربة وبيدها ورقة، ثم أمرتها سيدتها حينئذ بإشعال النار في مدفأتها.

معنى ذلك أن شيئاً قد حدث بين الرابعة والنصف والخامسة أزعج السيدة أنجلثروب وغيّر عواطفها وجعلها تقرر إعدام الوصية بسرعة كما كتبتها بسرعة، فما هو هذا الشيء؟ على قدر ما نعلم كانت وحدها خلال تلك النصف الساعة، فلم يدخل غرفة نومها أو يغادرها أحد، إذن ماذا غيّر عواطفها فجأة على هذا النحو؟ ليس هناك طريقة غير الحدس

والتخمين، ولكنني أعتقد أن ما خمنتُه كان صحيحاً. نحن نعلم أن السيدة أنجلثروب لم يكن لديها طوابع بريد في مكتبها لأنها طلبت من دوركاس أن تبتاع لها طوابع، وكان مكتب زوجها في ركن الغرفة أمامها، وقد كان المكتب مغلقاً وهي بحاجة إلى الطوابع فوراً، إذن من المرجَّح -وفقاً لتصوري- أنها حاولت فتح مكتب زوجها وجربت مفاتيحها الخاصة فنجحت وفتحت الدرج، وفي أثناء بحثها عن الطوابع وجدت الورقة التي رأتها دوركاس في يدها.

ومن ناحية أخرى توهمَت السيدة كافنديش أن تلك الورقة التي تشبثَت بها السيدة أنجلثروب لم تكن إلا دليلاً خطياً على خيانة زوجها جون فطلبتها منها، فأكدَت لها السيدة أنجلثروب أن الورقة ليست خاصة بموضوعها، وقد كانت صادقة، غير أن السيدة كافنديش ظنت أنها تتستر على جون. ونحن نعرف أن السيدة كافنديش سيدة قوية العزيمة وتغار على زوجها بجنون رغم تظاهرها بغير ذلك. ثم تصادف أن وجدَت السيدة كافنديش مفتاح الحقيبة الذي كانت السيدة أنجلثروب قد فقدَته في صباح ذلك اليوم، وكانت تعلم أن السيدة أنجلثروب تحتفظ بكل الأوراق الهامة في تلك الحقيبة، فتفتق ذهنها عن خطة لا تفكر في مثلها إلا امرأة أضلّتها الغيرة واستبدّ بها اليأس، وانتهزت إحدى الفرص وفتحَت مزلاج الباب الموصل بين غرفتي السيدة أنجلثروب وسنثيا، ولعلها وضعَت زيتاً في مفصّلات الباب لأنه لم يُحدث صوتاً عندما حرّكته، وكانت قد قررت تنفيذ خطتها في الساعات الأولى من الصباح، وهو الوقت الذي تعوّد فيه الخدم سماع حركتها

في غرفتها وهي ترتدي ثياب العمل لتشرع في حلب الأبقار. وهكذا استيقظت كالعادة وارتدت الثياب المألوفة، وبدلاً من أن تذهب إلى الحظيرة تسللَت إلى غرفة سنثيا ومنها إلى غرفة السيدة أنجلثروب.

وهنا صاحت سنثيا: لو أن أحداً دخل غرفتي لاستيقظت.

- هذا إذا لم تكوني تحت تأثير المخدر.

- مخدر؟!

ثم التفت إلينا وقال: لعلمكم تذكرون أن الآنسة سنثيا ظلت مستغرقة في النوم رغم الضجة التي حدثت في الغرفة المجاورة، وكان هناك احتمالان: إما أنها تظاهرت بالنوم وهو ما لم أعتقده، أو أنها كانت تحت تأثير مخدر، وكان الاحتمال الثاني في ذهني عندما فحصت أقداح القهوة بعناية شديدة. كنت أعلم أن السيدة كافنديش هي التي حملت القهوة إلى سنثيا بعد العشاء، وقد أخذت عينة من كل قدح وأرسلتها لكي يتم تحليلها فكانت النتيجة سلبية. وكان ستة أشخاص قد شربوا القهوة، فأحصيت الأقداح فكان عددها ستة بما في ذلك القدح الذي وُجد مهشماً في غرفة السيدة أنجلثروب، إذن لا بد أنني أخطأت، ولكنني ما لبثت أن اكتشفت أن الدكتور باورشتاين زار القصر في تلك الليلة وأن القهوة صُنعت لسبعة أشخاص لا لستة، إذن أين القدح السابع؟ فأيقنت أن القدح المفقود هو قدح الآنسة سنثيا، خاصة وأن بقايا القهوة في الأقداح الموجودة كانت محلاة بالسكر في حين

لا تتناول الآنسة قهوتها محلاّة أبداً، وقد استرعى انتباهي ما قالته الخادمة آني عن ملح وجدَته في الصينية التي حملَت فيها الكاكاو إلى السيدة أنجلثروب، فأخذت عينة من الكاكاو وأرسلتها لكي يتم تحليلها.

فقال لورنس: ولكن الدكتور باورشتاين كان قد أرسل عينة للتحليل فعلاً.

- أجل، لقد طلب تحليلها لمعرفة ما إذا كان فيها سُم الإستركنين أم لا، أما أنا فطلبت تحليلها لمعرفة ما إذا كان فيها مخدر أم لا.

- مخدر؟

صمت قليلاً ثم قال: لقد وضعَت السيدة كافنديش المخدر بكمية مأمونة في قهوة الآنسة سنثيا وفي كاكاو السيدة أنجلثروب، وفي استطاعتنا أن نتصور هلعها حين رأت ما أصاب السيدة أنجلثروب، فقد ظنت أن كمية المخدر كانت أكثر مما ينبغي فقتلتها وأنها سوف تكون المسؤولة عن موتها! وتحت تأثير الفزع أسرعت إلى قدح سنثيا فأخفته في إحدى أواني الزهور حيث وجدَته دوركاس فيما بعد وقدمته إليّ، ولكنها لم تجسر على الاقتراب من بقايا الكاكاو لكثرة الأعين حولها في غرفة السيدة أنجلثروب. والآن في استطاعتنا أن نعرف لماذا تأخر ظهور أعراض الإستركنين، فتناول المخدّر مع الإستركنين من شأنه أن يؤخر تأثير السم بضع ساعات دائماً.

ثم صمت فقالت ماري وقد بدأ وجهها يستردّ لونه

الطبيعي: كل ما قلتَه صحيح يا سيد بوارو، فتلك كانت من أهول الساعات التي مرّت بي في حياتي. أنت عجيب حقاً، ولقد فهمت الآن ما...

- ما كنت أعنيه حين قلت إن بوسعك الاعتراف للأب بوارو؟ ولكنك لم تريدي الوثوق بي.

فقال لورنس: الآن فهمت كل شيء، فتناول الكاكاو بالمخدر مع القهوة المسمومة أخّر ظهور أعراض التسمم.

- تماماً، ولكن هل كانت القهوة مسمومة؟ ذلك ما لا نستطيع أن نقطع فيه برأي لأن السيدة أنجلثروب لم تشرب تلك القهوة.

ارتفعت صيحات الدهشة من كل مكان، واستطرد بوارو قائلاً: لعلكم تذكرون أنني حدثتكم عن بقعة كبيرة على السجادة في غرفة السيدة أنجلثروب. لقد تميزَت تلك البقعة ببعض الخصائص، منها أنها كانت لا تزال رطبة، وأنها كانت تنبعث منها رائحة القهوة قوية نفّاذة، وأن ذرات صغيرة من القدح كانت مبعثرة فيها. ولكن ما حدث كان واضحاً لي تمام الوضوح، ذلك لأنني ما كدت أضع حقيبتي الصغيرة على المائدة بجوار النافذة حتى انهارت المائدة لعيب في ترابط قوائمها فسقطت الحقيبة على الأرض، ومن المحقق أن ذلك بالضبط ما حدث مع السيدة أنجلثروب، فهي ما كادت تضع قدح القهوة على المائدة حتى انهارت المائدة بما عليها. وقد علمت ما حدث بعد ذلك بمجرد التخمين، وهو أن السيدة أنجلثروب لا بدّ أنها قد التقطت حطام القدح ووضعته على

المائدة الصغيرة التي بجوار الفراش، وحين أحست بحاجتها إلى شراب منشط قامت بتسخين الكاكاو وشربته.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: وهنا نجد أنفسنا أمام مشكلة جديدة، فنحن نعرف أن الكاكاو كان خالياً من الإسترکنين وأن القهوة سالت على الأرض ولم تُشرَب، فكيف حدث التسمّم إذن؟ من المحقق أن الإسترکنين تم تناوله بين السابعة والتاسعة مساء، فأيّ سائل آخر كان في الغرفة عدا الكاكاو والقهوة يصلح لإخفاء مذاق الإسترکنين وتخفيف مرارته؟

قال ذلك ونظر إلينا، وانتظر قليلاً ثم أجاب بنفسه على السؤال قائلاً: كان هناك الدواء الذي اعتادت أن تتناوله.

فصحت قائلاً: هل تعني أن القاتل وضع السم في زجاجة الدواء؟

- القاتل لم يكن بحاجة إلى وضع السم في الدواء لأن الإسترکنين موجود في تركيب الدواء نفسه، ولكي أوضح لكم ذلك سأتلو عليكم فقرة من كتاب في الصيدلة وجدته في صيدلية مستشفى تادمنستر، وقد أوردَت الفقرة التركيب الدوائي التالي: «سلفات الإسترکنين١ غرام + بوتاس البروميد ٣ غرامات + ماء ٣ غرامات». هذا التركيب أصبح معروفاً لدى الصيدليات في جميع أنحاء العالم بعد أن تسبب في وفاة إحدى السيدات الإنكليزيات، وذلك لأن البروميد حوّل جانباً كبيراً من الإسترکنين إلى بلورات شفافة صغيرة ترسبت في قاع الزجاجة، فلما تناولَت الجرعة الأخيرة من الدواء كانت تلك

الجرعة عبارة عن الإستركنين مركَّزاً مما أدى إلى وفاتها. ذلك ما جاء في الكتاب الذي أشرت إليه.

ثم أغلق الكتاب ووضعه على المنضدة واستطرد قائلاً: والآن لنتحدث عن دواء السيدة أنجلثروب. لقد وصف لها الدكتور ويلكنز هذا الدواء، وكان خالياً من مادة البروميد طبعاً. ولكنكم تذكرون أنني حدثتكم عن علبة فارغة كانت فيها أقراص البروميد، فإذا وُضع قرص أو قرصان من البروميد في زجاجة الدواء ترسب الإستركنين كله في القاع فتتناوله المريضة في آخر جرعة. وكان الشخص الذي تعوّد تقديم الدواء للسيدة أنجلثروب حريصاً على عدم رج الزجاجة كي يظل الإستركنين راسباً في القاع.

وصمت قليلاً ثم استطرد: وقد دلت شواهد كثيرة على أن يوم الإثنين كان الموعد المحدد للمأساة أصلاً، ففي ذلك اليوم قُطعت أسلاك جرس السيدة أنجلثروب وتقرر أن تقضي الآنسة سنثيا ليلتها عند إحدى صديقاتها، وبذلك تبقى السيدة أنجلثروب في الجناح الأيمن وحدها بعيدة عن النجدة كي تموت قبل أن تتلقى أية معونة طبية. ولكن السيدة أنجلثروب -في تعجّلها لحضور الحفلة في القرية في الوقت المناسب- نسيَت أن تتناول دواءها، وفي اليوم التالي تناولت الغداء عند بعض أصدقائها، وبذلك تأخر تناول الجرعة الأخيرة القاتلة أربعاً وعشرين ساعة عن الموعد الذي توقعه القاتل، وبسبب هذه التأخير وقع الدليل الأخير، أو الحلقة الأخيرة في السلسلة، في أيدينا.

وبينما حبس كل واحد من الحاضرين أنفاسه أخرج بوارو من جيبه ثلاث شرائح من الورق وقال هو يلوح بها: هذا هو الدليل الأخير يا أصدقائي، رسالة بخط القاتل! ولو كانت عبارات الرسالة أكثر وضوحاً لتمكنَت السيدة أنجلثروب أن تأخذ حذرها في الوقت المناسب وتنجو، ويبدو أنها أحست بالخطر ولكنها لم تعرف نوعه.

وسط السكون التام وضع بوارو الشرائح الثلاث جنباً إلى جنب، ثم قرأ ما فيها بصوت واضح: «عزيزتي إيفيلين، لا شك أنك قلقة إذ لم يبلغك شيء، ولكن كل شيء على ما يرام، وسوف نقضي أياماً سعيدة بمجرد موت المرأة العجوز، ولن يكون في استطاعة أحد أن يثبت الجريمة ضدي، ولكن يجب أن نظل دائماً على حذر لأن أيّ خطأ...». عند هذا الحد انتهت الرسالة أيها الأصدقاء، ومما لا شك فيه أن الكاتب فوجئ بقدوم شخص لم يكن يتوقعه، أما شخصية القاتل فواضحة لأننا جميعاً نعرف خطه.

في تلك اللحظة مزق السكونَ صوتٌ يصيح: أيها الوغد! كيف عثرت عليها؟

وسقط أحد المقاعد، فوثب بوارو من مكانه بخفة فسقط مهاجمه على الأرض، ثم قال بوارو بهدوء: سيداتي وسادتي، اسمحوا لي أن أقدم لكم القاتل، السيد ألفريد أنجلثروب.

* * *

الفصل الثاني عشر
توضيحات

قلت: أيها الوغد بوارو، كم أودّ أن أخنقك! لماذا خدعتني وحجبتَ الحقائق عني على هذا النحو؟

كنا جلوساً في قاعة المكتبة بعد أن مررنا بأيام عصيبة، وفي الغرفة التي تحتنا كان جون وماري معاً وقد التأم شملهما مرة أخرى، في حين كان ألفريد أنجلثروب وإيفيلين هوارد في السجن في انتظار المحاكمة. ولم يُجِبني بوارو على الفور، بل صمت طويلاً قبل أن يقول: أنا لم أخدعك يا صديقي وإنما تركتك تخدع نفسك.

- ولكن لماذا؟

- لأنك صريح وصادق ويستحيل عليك إخفاء مشاعرك، ولو صارحتك بآرائي لقرأ أنجلثروب في وجهك كل شيء ولذهبت آمالنا في الإيقاع به أدراج الرياح.

- كان يمكنك أن تدلي ببعض التلميحات.

– هذا هو ما فعلته مراراً يا صديقي، ولكنك لم تُعرني التفاتاً. ألم أقل لك إنني واثق من براءة جون كافنديش؟ ألم أقل مراراً إنني لا أريد أن يُقبَض على أنجلثروب الآن؟

– هل تعني أنكَ كنت ترتاب فيه منذ ذلك الوقت؟

– نعم، لسبب بسيط هو أنه أكثر من يستفيد من موت زوجته، ولكنني عندما اكتشفت أن السيدة أنجلثروب هي التي أحرقت الوصية اهتزت ثقتي في أن أنجلثروب هو القاتل، والواقع أن الأدلة ضده كانت من الكثرة والوضوح بحيث أيقنت أنه ليس القاتل.

– ومتى غيّرتَ رأيك؟

– عندما وجدت أنني كلما عملت على تبرئته بذل هو مزيداً من الجهد كي يُقبض عليه، وقد تحولت شكوكي إلى يقين عندما اكتشفت أن العلاقة العاطفية كانت بين السيدة ريكس وجون كافنديش لا بينها وبين أنجلثروب.

– ولكن لماذا؟

– لأنه لو كانت العلاقة مع أنجلثروب فسيكون صمته مفهوماً، ولكنني اكتشفت أن القرية كلها تتحدث عن علاقة جون والسيدة ريكس. إذن لا بد أن يكون لصمت أنجلثروب معنى آخر، وعندما فكرت في الأمر ملياً أدركت أنه أراد أن ينظر المحقق إلى تلك العلاقة المزعومة كسبب لإقدامه على التخلص من زوجته فيُقبض عليه بتهمة القتل.

- ولكن لماذا أراد أن يُقبَض عليه؟

- لأن قوانين بلادكم تمنع محاكمة الإنسان مرتين لنفس التهمة، وقد كانت فكرته رائعة وتدل على أنه رجل منظَّم العقل، فقد افتعل ضد نفسه طائفة من الأدلة الزائفة لكي يُقبَض عليه ويحاكم، وحينئذ يظهر زيف الأدلة ويُحكم ببراءته فيظل في آمان بقية حياته.

- ولكن كيف يستطيع إثبات براءته وهو الذي ذهب بنفسه إلى صيدلية القرية؟

- ألم تفهم بعدُ أيها الصديق أن إيفيلين هوارد هي التي ذهبَت إلى الصيدلية؟

- إيفيلين هوارد؟!

- وهل يمكن أن يكون هناك سواها؟ فلها صوت خشن كأصوات الرجال، ثم إنها ابنة عم أنجلثروب وبينهما تشابه واضح، وخاصة في القامة والمشية.

- وحكاية البروميد، كيف تمّت؟

- أنا أميل إلى الاعتقاد بأن إيفيلين هوارد كانت هي العقل المدبر، وقد علمت أن أباها كان طبيباً، ولعلها قرأت في أحد كتبه أو أحد كتب الآنسة سنثيا عن موضوع البروميد وأثره في ترسيب الإستركنين. ولم يكن أيسر على السيد أنجلثروب من وضع البروميد في زجاجة الدواء لزوجته دون أن يرج الزجاجة، أما إيفيلين نفسها فقد افتعلت مشاجرة مع السيدة

أنجلثروب كي تغادر القصر وتصبح بمنأى عن الشبهات، وكان ذلك هو السبب المباشر في ضياعهما، فلولا رسالة أنجلثروب إليها لما أمكن إقامة الدليل ضدهما. لقد حاولا إلصاق التهمة بجون كافنديش بشراء الإستركنين من صيدلية القرية والتوقيع على سجل الصيدلية بخط شبيه بخطه، وكانت إيفيلين قد تدربت على تقليده، وإمعاناً في توريطه كتبت إليه تلك الرسالة التي حملته إلى الذهاب إلى مكان مقفر لا يراه فيه أحد في نفس الوقت الذي كانت هي فيه في الصيدلية، ولما تأخرت المأساة يوماً للأسباب التي سبق أن ذكرتها انتهز أنجلثروب فرصة خروج زوجته وشرع في كتابة رسالة يطمئن فيها شريكته التي خشي أن يستولي عليها الفزع لعدم سماعها نبأ وفاة الزوجة، ولكن الزوجة عادت فجأة فأخفى أنجلثروب الرسالة في دُرج مكتبه، وأغلق الدرج وخرج وهو لا يتوقع أن تفتح زوجته الدرج وتجد الرسالة. وقد قرأت السيدة أنجلثروب الرسالة التي فضحَت حقيقة مشاعر زوجها وابنة عمه، ولكنها لم تفهم العبارة الخاصة بالبروميد فلم تأخذ حذرها، وكل ما فعلته أنها كتبت إلى محاميها تطلب منه مقابلتها في اليوم التالي وقررت إعدام الوصية واحتفظت بالخطاب الذي يدين زوجها.

– إذن فالزوج هو الذي فتح الحقيبة عنوة للبحث عن الرسالة؟

– أجل، لأنه كان يدرك مدى خطورتها عليه؛ فهي الدليل الوحيد على صلته بالجريمة.

– هناك أمر لم أستطيع فهمه؛ لماذا لم يبادر أنجلثروب إلى التخلص من الرسالة حالما استولى عليها؟

– لأنه لم يجسر على المجازفة بما هو أخطر، وأعني الاحتفاظ بها في جيبه.

– لم أفهم بعد.

– لقد اكتشفت أنه كانت لديه خمس دقائق فقط قبل حضورنا، وقبل ذلك كانت آني تعمل في تنظيف الدرَج وكان بوسعها أن ترى كل من يحاول الانتقال إلى الجناح الأيمن، ولك أن تتصور موقفه حين فتح باب الغرفة بأحد المفاتيح الأخرى وأسرع إلى حقيبة الأوراق فوجدها مقفلة ولا أثر للمفاتيح. كان ذلك صدمة له، فمعناه أن وجوده في الغرفة سيكتشف، ولكنه قرر المجازفة بكل شيء في سبيل الحصول على الدليل الوحيد الذي يمكن أن يسوقه إلى المشنقة. وبسرعة جنونية فتح القفل بمطواة وبحث بين الأوراق فوجد الرسالة. وهنا واجهته مشكلة جديدة؛ فهو لا يستطيع الاحتفاظ بالرسالة خوفاً من أن تضبط معه إذا شوهد وهو يغادر الغرفة، كما أنه لا يجد وسيلة للتخلص منها بتدميرها، فما العمل؟ وبأسرع من لمح البصر مزّق الرسالة إلى ثلاث شرائح ولفّ كل شريحة حتى أصبحَت كقلم الرصاص، ثم غرس الشرائح جميعاً في إناء للزهور التي كانت فوق المدفأة وهو واثق من أن أحداً لن يفكر في البحث في الآنية وأنه سوف يتمكن من استرداد الشرائح في الوقت المناسب.

– آه، إذن فقد كانت الرسالة تحت أنوفنا طَوال الوقت

ولم نفطن إلى وجودها؟

- أجل أيها الصديق، ولكنني وجدتها بفضلك.

- بفضلي أنا؟

- نعم، ألم تقُل لي إنك رأيت يدي ترتجف بشدة وأنا أعيد تنظيم بعض التحف فوق المدفأة؟

- ولكن ما الصلة بين...

فقاطعني: سأقول لك ما الصلة. لقد تذكرت أنني نظمت تلك التحف في الصباح عندما كنت معك في الغرفة، ولو لم يختلّ نظامها لما اضطُررت إلى إعادة تنظيمها مرة أخرى، إذن لا بد أن يداً قد عبثَت بها.

- يا إلهي! إذن فهذا هو سبب اندفاعك إلى الخارج كالمجنون لكي تصل إلى ستايلز وتبحث عن الرسالة.

- الواقع أنني كنت في سباق مع الزمن.

- ومع ذلك فقد كان لدى أنجلثروب والآنسة هوارد متسع من الوقت لاسترداد الرسالة من مخبئها.

- كان أنجلثروب مطمئناً إلى أن أحداً لن يجدها، ثم إنه لم يشأ الإقدام على أية مجازفة. أما الآنسة هوارد فلم تكن تعلم بوجود الرسالة، وكان الاتفاق بينها وبين أنجلثروب ألا يتحادثا لأن المفترض أنهما عدوّان لدودان، ولذلك لم يخبرها بأمر الرسالة.

- ومتى بدأت ريبتك في الآنسة هوارد؟

- عندما علمت أنها وأنجلثروب أبناء عم، ثم إن بغضها له لم يكن طبيعياً، فأدركت أن وراء هذا البغض عاطفة أخرى، ومن المؤكد أنه كانت بينهما صلة قديمة وأنهما دبّرا الأمر بحيث يقترن أنجلثروب بالأرملة الثرية ومن ثَم يتخلصان منها.

- ولكنني لا أعلم لماذا حاولا إلصاق التهمة بجون ولم يحاولا إلصاقها بلورنس، فقد كان موقف لورنس مؤلماً ومضطرباً طَوال الوقت.

- هل تعلم لماذا؟

- لا.

- ألا تعلم أنه كان يعتقد أن سنثيا هي مرتكبة الجريمة؟

- مستحيل.

- أبداً، فأنا نفسي ظننت نفس الشيء، وقد كنت أفكر في ذلك حينما سألت السيد ويلز عن الوصية. ثم لا تنسَ أنها هي التي أعدّت علبة البروميد وأنها تعرف كل شيء عن السموم. والآن، هل تريد أن تعرف لماذا أصيب لورنس بالفزع والذهول عندما دخل غرفة أنجلثروب بعد تحطيم بابها؟ لقد ذُعر حين رأى أن الباب الموصل إلى غرفة سنثيا ليس موصَداً بالمزلاج.

- ولكنه قال إنه رآه موصَداً.

- تماماً، وذلك ما أكد أنه لم يكن موصَداً، فقد أراد التستر على سنثيا.

- ولماذا يتستّر عليها؟

- لأنه يحبها.

ضحكت وقلت: على العكس، إنه يمقتها.

- من قال لك ذلك؟

- سنثيا نفسها.

- وهل كانت حزينة؟

- لا، قالت إن ذلك لا يهمّها.

- إذن فهو يهمها كثيراً؛ ذلك شأن النساء دائماً.

- إن ما تقوله عن لورنس يدهشني.

- ولماذا؟ ألم ترَ كيف كان يعبس ويتجهّم كلما تحدثَت سنثيا أو ضحكَت مع أخيه؟ لقد كان يتوهّم أن سنثيا تحب جون، وعندما دخل غرفة السيدة أنجلثروب وأدرك أنها مصابة بتسمم ظن أن لسنثيا ضلعاً في تسميمها، خاصة وأنها كانت معها في أثناء الليل، فبادر إلى تهشيم قدح القهوة بأن داسه تحت قدميه حتى لا يترك فيه بقية من القهوة يمكن تحليلها، ثم دافع بشدة عن نظرية الوفاة الطبيعية.

- سؤال أخير: ماذا كانت السيدة أنجلثروب تعني حين رددَت اسم زوجها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة؟

- كانت تريد اتهامه بطبيعة الحال.

- أظن أنك قد أوضحتَ كل شيء، فشكراً لك أيها العزيز بوارو، وحمداً لله على أن كل شيء قد انتهى بسلام، حتى جون وزوجته قد تصالحا.

- والفضل في ذلك لي.

- ماذا تعني؟

- ألم تدرك أيها الصديق أن محاكمة جون كانت هي الوسيلة الوحيدة للجمع بينهما وإعادة الصفاء إلى حياتهما؟ لقد كنت واثقاً من أنه يحبها وأنها تحبه، ولكن سوء التفاهم فرّق بينهما، ذلك لأنها تزوجته دون حب وكان هو يعلم ذلك، ولفرط حساسيته لم يشأ أن يفرض نفسه عليها وأخذ يتباعد عنها، فأيقظ تباعده حبها، ثم جاءت مغامرته مع السيدة ريكس فبدأت الكبرياء تلعب دورها، ثم شرعت ماري في توثيق صلتها بالدكتور باورشتاين. هل تذكر يوم أن قلت لك إنني أوشك أن أتخذ قراراً؟ كنت يومئذ حائراً بين أن أبرّئ جون أو أن أدعه يُحاكم، وكان بوسعي أن أبرئه وكان ذلك سيؤدي إلى ضياع آمالنا في القبض على المجرمَين الحقيقيَّين.

- أتعني أنه كان بوسعك إنقاذ جون من المحاكمة؟

- نعم يا صديقي، ولكنني قررت أن سعادة المرأة أهم، فلم يكن هناك ما يمكن أن يجمع بينهما ويعيد الصفاء إلى حياتهما مثل الشدائد التي تعرّضا لها. إن إسعاد رجل وامرأة هو أهم شيء في هذه الدنيا.

ذكّرني هذا الكلام بما حدث بعد أيام حين تهالكَت ماري على الأريكة وهي شاحبة الوجه لاهثة الأنفاس، ثم فُتح الباب ودخل بوارو وهو يقول: "ها قد جئت به يا سيدتي". ثم أفسح الطريق فدخل جون.

تذكرت ذلك المشهد فقلت له: لا شك أنك على حق يا بوارو. إن سعادة رجل وامرأة هي أهم شيء في هذا العالم.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب فجأة ودخلت سنثيا فقالت وهي تلهث: لقد جئت لأقول لكما...

ولم تتم عبارتها، وأتت إليّ فشكرتني ثم شكرت بوارو وخرجت مسرعة، فنظرت إلى بوارو بدهشة وسألته: ما معنى هذا؟

- معناه أنها اكتشفت أخيراً أن لورنس لا يكرهها كما كانت تتوهم.

قلت معترضاً: ولكن...

- ها هو.

وفي تلك اللحظة مرّ لورنس من أمام الباب، فناداه بوارو قائلاً: سيد لورنس، يجب أن نهنئك، أليس كذلك؟

احمرّ وجه لورنس خجلاً ثم ابتسم بحرج. إن رجلاً واقعاً في الحب يكون ذا شكل مضحك.

* * *

(تمت)